أحوال القاهرة ومجاوراتها، والمنطقة الشرقية وسيناء، سنة ١٥٠٧م في يوميات رحالة أوروبي (دراسة وصفية مصدرية مقارنة)

دكتور إبراهيم سعيد فهيم محمود

أستاذ تاريخ وحضارة العصور الوسطى المساعد

قسم التاريخ والآثار المصرية والإسلامية

كلية الآداب جامعة الإسكندرية

الملخص العربي:

يواجه الباحث في تاريخ وأحوال القاهرة في السنوات الأخيرة من زمن المماليك في ظل حكم السلطان قانصوه الغوري، معضلة قلة المصادر العربية التي يمكن الاعتماد عليها بهذا الشأن. _والواقع أن مصادر الرحالة الغربيين تمثل كنزا معلوماتيا ثمينا لتاريخ القاهرة وأحوالها في تلك الفترة. وتمثل رحلة النمساوي من أصل ألماني مارتن بومجارتن Martin إلى القاهرة وسيناء في طريقه إلى فلسطين لرؤية مزاراتها المسيحية المقدسة، أحد أقيم هذه المصادر. ولما كنا قد بحثنا في دراسة سابقة لنا حياة هذا الرحالة النمساوي من أصل ألماني وعرفنا بيوميات رحلته، ومحطات رحلته منذ شرع في القيام بها من مسقط رأسه حتى وصوله للإسكندرية، فضلا عن وصفه للإسكندرية ومدن دلتا النيل، انصب هدفنا في هذا البحث على متابعة يوميات زيارته لمصر، منذ حل بالقاهرة وحتى مغادرته لها متجها إلى فلسطين. وجرت خطة البحث، على تناول ما جاء في اليوميات، لوصف وتحليل الصورة التي كانت عليها القاهرة وسيناء سنة ١٥٠٧م في ظل حكم قانصوه الغوري. ومقارنة بعض مشاهداته بمثيلاتها لدي بعض الزوار الأوروبيين قريبي الصلة زمنيا بتلك الفترة، وكذلك بعض المصادر العربية. وذلك لبيان ثراء ودقة ما ورد في يومياته من معلومات، ومدي قيمتها فيما يتعلق بتاريخ مصر في العقد الأخير من الحكم المملوكي لها، والذي يندر فيه، وجود مصادر تاريخية عربية تؤرخ له.

الملخص الإنجليزي:

The researcher in the history of Cairo in the last years of the Mamluks era, specially under the sovereignty of Qansua El Ghoury, face a difficulty of shortage of the Arabic sources. The sources of European travelers form a treasure of precious knowledges about Cairo at this time. The travel of Austrian noble, from German Origin named Martin Baumgarten, to Cairo and Sinai in his way to Palestine to visit the Holy Places in Palestine, consider one the most valuable of those sources. Because we researched already the life of this Austrian noble, from German Origin, his diaries, his stops through the maritime travel till Egypt, his description to Alexanderia and lower Egypt cities and countryside in the commencement of 16^{th} century. This article's aim was using the diary of this European traveler, to follow his days in Egypt since he arrived to Cairo till he left the boundaries of Egypt to Palestine. The paper focuses on using this diary of travel as an eyewitness view to describe Cairo and Sinai in 1507 A. D, under the rule of Qansua El Ghoury, in comprising with another European travelers' texts to reveal the importance of this diary, and its value for the history and civilization of Cairo and Sinai in the last decade of Mamelukes era, which misses the existence of Arabic sources can be used to wright the history.

المقدمة:

يواجه الباحث في تاريخ وأحوال القاهرة في الحقبة الأخيرة من زمن المماليك في ظل حكم السلطان قانصوه الغوري، معضلة قلة المصادر العربية التي يمكن الاعتماد عليها بهذا الشأن. بيد أن موضوع رسالتنا للدكتوراة الذي تناولنا فيه حركة الحج الأوروبي سنة ١٩٩٧م، أتاح لنا ولحسن الحظ، الاطلاع على عشرات المصادر الخاصة بالرحلة إلى مصر، والحوض الشرقي للبحر المتوسط في مكتبات مصر وفرنسا وانجلترا بلغاتها الأصلية، مما أظهر لنا، أن الفجوة المعلوماتية والمصدرية عن القاهرة بصفة خاصة، ومصر بصفة عامة، في تلك الحقبة، يمكن سدها من خلال المصادر الأوروبية. فما عكسته عيني المسافر التي كانت بمثابة كاميرا التصوير في ذلك الزمان، وعبر عنه بالكلمة، وأحيانا بالصورة المرسومة، لكل ما شاهده في رحلته، ولمسه خلال سفره، يمكن الباحث من الغوص في بحار عالم الرحلة، واستخلاص الكثير من معلوماته الثرية، وأحيانا المتفردة.

ولعل السطور السابقة، تكشف لنا بما لا يدع مجالا للشك، أن المصادر الغربية تمثل كنزا معلوماتيا ثمينا لتاريخ القاهرة، وأحوالها في أخريات الحكم المملوكي بصفة خاصة. وتتنوع هذه المصادر الأوروبية ما بين كتابات الزيارة والسفارة للعديد من الأوروبيين الذين اختلفت أغراضهم من وجودهم في القاهرة في العقدين الأوليين من القرن السادس عشر الميلادي. وحري بالذكر أن تلك السفارات قد لفتت نظر بعض كبار المتخصصين، فخصصوا عدة بحوث لها، بداية من دكتور حسين مؤنس في بحثه عن سفارة السفير الإسباني بيير مارتير دانجييرا Pierre Martyr d`Anghiera سنة ١٥٠٢م [١]، وانتهاء ببحث دكتور فايز إسكندر عن الفرنسي جان ثينو Jean Thenaud أحد أفراد السفارة الفرنسية للسلطان الغوري سنة ١٥١٢م [٢]. وما بين هذه السفارة وتلك، زار القاهرة وسيناء الرحالة النمساوي من أصل ألماني مارتن بومجارتن Martin Baumgarten، في طريقه إلى فلسطين لرؤية مزاراتها المسيحية المقدسة.

ولما كنا قد بحثنا في دراسة سابقة لنا حياة هذا الرحالة النمساوي من أصل ألماني وعرفنا بيوميات رحلته، ومحطات رحلته منذ شرع في القيام بها من مسقط رأسه حتى وصوله للإسكندرية، فضلا عن وصفه للإسكندرية ومدن

---

[١] حسين مؤنس (دكتور): سفارة بدرو مارتير دانجلاريا سفيرالملكين الكاثوليكيين إلى السلطان الغوري (ديسمبر ١٥٠١م . فبراير ١٥٠٢م)، بحث منشور ضمن أبحاث الندوة الدولية لتاريخ القاهرة، مارس . أبريل ١٩٦٩م، جزء ١، القاهرة (مطبعة دار الكتب)، ١٩٧٠م.

[٢] فايز نجيب إسكندر (دكتور): زمن المماليك الجراكسة في عيني الرحالة الفرنسي جان ثينو (مارس سنة ١٥١٢م/ المحرم سنة ٩١٨هـ، دراسة تحليلية نقدية مقارنة بمصادر الرحالة الأوروبيين المعاصرين، بحث منشور ضمن أبحاث المؤتمر الدولي الثالث لكلية الآداب والعلوم الإنسانية بجامعة قناة السويس بعنوان (العلاقات المصرية الفرنسية عبر العصور)، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة قناة السويس، الإسماعيلية، ٢٠١١م.

دلتا النيل، انصب هدفنا في هذا البحث على متابعة يوميات زيارته لمصر، منذ حل بالقاهرة وحتى مغادرته لحدودها متجها إلى فلسطين.

وكانت الحقيقة التاريخية، واستكمال ما بدأناه عن هذا الرحالة، مبتغانا لإعداد هذا البحث. لإيفاء هذا الرحالة الذي خبرناه منذ فترة ليست بالقصيرة بعمر السنين، حقه في العرض الدقيق لمشاهداته في القاهرة ومجاوراتها وسيناء بما يستحقه من عناية الباحثين، كونه آخر الرحالة الأوروبيين الذين زاروا القاهرة في العصر المملوكي بشكل شخصي. فقد ترك لنا يوميات عن تلك الرحلة، ثبت لنا بالدراسة المقارنة دقتها الشديدة، وتحريه الصدق في كل ما سجله. إذ لم تكن رحلته مدفوعة بغرض سياسي أو دبلوماسي، مثل من تداعوا لزيارة القاهرة قبله وبعده في العقدين الأخيرين من حكم سلطنة المماليك، كالإسباني بدرو مارتير دانجلاريا، والفرنسي جان ثينو، والإيطالي دومينيكو تريفيزان Domenico Trivesan.

وجرت خطة البحث، على تناول ما جاء في يوميات مارتن بومجارتن، لوصف وتحليل الصورة التي كانت عليها القاهرة ومجاوراتها، والمنطقة الشرقية وسيناء سنة ١٥٠٧م في ظل حكم قانصوه الغوري، زمن الزيارة. ومقارنة بعض مشاهداته بمثيلاتها لدي بعض الزوار الأوروبيين قريبي الصلة زمنيا بتلك الفترة، وكذلك بعض المصادر العربية. وذلك لبيان ثراء ودقة ما ورد في يومياته من معلومات، ومدي قيمتها فيما يتعلق بتاريخ مصر في العقد الأخير من الحكم المملوكي لها، والذي يندر فيه، وجود مصادر تاريخية عربية تؤرخ له.

وفي الواقع يمكن تقسيم ذلك الجزء من يوميات رحلة مارتن بومجارتن زمنيا لأربع مراحل، يتعلق أولهم بمشاهداته في القاهرة، وثانيهم بمجاورات القاهرة كقرية المطرية، ومدينة الخانكة، في حين تتصل المرحلة الثالثة بخطوات الرحلة من القاهرة لدير القديس كاثرين بسيناء والعودة ثانية للقاهرة. أما آخر هذه المراحل فتصف رحلته من القاهرة إلى فلسطين عبر شرق مصر، وشمال سيناء. وجاء ذلك في سياق متابعة زمنية تحليلية لأحداث اليوميات، بما يظهر هذه المعلومات ويعززها أو يوضحها بمقارنتها بنصوص بعض المصادر المتزامنة، مع عدم تقسيم ما ورد فيها لعناصر متشابهة أو متماثلة عبر تلك اليوميات، حتى لا نُفقدها حيوتها، وتتابعها الزمني.

الدراسات السابقة:

تجدر الإشارة في هذا المقام، أن يوميات مارتن بومجارتن مثلت لنا واحدًا من المصادر الأوروبية، التي تم الرجوع لها في إطار رسالتنا للدكتوراة بعنوان "حركة الحج الأوروبي إلى الأماكن المقدسة في الشرق الأدنى الإسلامي (١٢٩١ – ١٥١٧م / ٦٩٠ – ٩٢٣هـ)، سنة ١٩٩٧م، والتي تم نشرها بنفس العنوان في جزئين منذ سنة ٢٠٠٧م

[٣]. كذلك ولقيمتها فيما يتصل ببحثنا سنة ٢٠٠٧م، عن تغري بردي الترجمان، بعنوان " سيرة أوروبي في البلاط المملوكي: تغري بردي الترجمان ودوره في العلاقات المملوكية الأوروبية ١٤٨١ – ١٥١١م، شكلت اليوميات مصدرا متميزا في هذا الإطار [٤]. ولإدراكنا أهمية هذه اليوميات، حرصنا على التعريف بهذا المصدر، وما يحتويه من معلومات فائقة القيمة والدقة التاريخية عن الإسكندرية والدلتا، في بحثنا قيد النشر بالعدد رقم ٢٦، لسنة ٢٠٢٢م، بمجلة الدراسات الإنسانية والأدبية، لكلية الآداب . جامعة كفر الشيخ بعنوان "الإسكندرية ومدن دلتا النيل بعيون أوروبية نهاية العصر المملوكي: دراسة وصفية مقارنة ليوميات مارتن بومجارتن".

وفي إطار تمحيصنا لأي دراسات تتعلق بمارتن بومجارتن، لفت انتباهنا احتواء المكتبة التاريخية في السنوات الأخيرة على بحثين نشرا بالقاهرة سنة ٢٠١٧م [٥]، و٢٠١٩م [٦] اتصلا ببعض مشاهداته في القاهرة. وتحريا للحقيقة التاريخية، يمكن القول إن أولهما تعلق بنص، ورد ذكره في يوميات مارتن بومجارتن، أوردت المقالة ترجمة له في بضع صفحات، عن استعراض عسكري بالقاهرة كان شاهد عيان له. غير أن منهج البحث في تلك المقالة في بقية صفحاتها، استهدف ربط هذا العرض باستقبال أمير عثماني، واتخاذ مراسم استقباله منطلقا للحديث بإسهاب عن موقف الغوري من بعض السفارات الإسلامية. ومهدت المقالة لذلك ما نصه "ومن بين هؤلاء الرحالة الألماني مارتين بوم جارتين الذي زار مصر والشام في أواخر القرن السادس عشر الميلادي (٩١٥هـ . ١٥٠٥م)"، كما أضافت " كان من حسن الحظ أن الرحالة مارتين شاهد بنفسه تلك العروض العسكرية التي أقيمت من أجل الأمير قرقد ابن يزيد العثماني، الذي جاء إلى مصر عصر السلطان قانصوة الغوري"، والذي حددت وصوله بالقول "وما أن وصل الأمير قرقد بن عثمان إلى شبرا في ١٨ صفر ٩١٥هـ/ ١٥٠٩، حتى أخلى له السلطان قانصوة قاعات البرانجية الموجودة

---

[٣] إبراهيم سعيد فهيم محمود (دكتور): حركة الحج الأوروبي إلى الأماكن المقدسة في الشرق الأدنى الإسلامي (١٢٩١ – ١٥١٧م / ٦٩٠ – ٩٢٣هـ)، ٢ جزء، الإسكندرية (دار المعرفة الجامعية) ٢٠٠٧ – ٢٠٠٨م، وأعيد طبع الجزء الأول سنة ٢٠١٩.

[٤] إبراهيم سعيد فهيم محمود (دكتور): سيرة أوروبي في البلاط المملوكي: تغري بردي الترجمان ودوره في العلاقات المملوكية الأوروبية ١٤٨١ – ١٥١١م، بحث ألقي بندوة الأستاذ الدكتور السيد عبد العزيز سالم (٥ نوفمبر ٢٠٠٧م – كلية الآداب جامعة الإسكندرية)، ونشر ضمن أبحاث الندوة بمطبوعات مجلة كلية الآداب – جامعة الإسكندرية، ٢٠٠٨م.

[٥] منال محمد السيد (دكتور): العروض العسكرية أواخر دولة المماليك الجراكسة في ضوء رحلة الألماني مارتين بوم جارتين، بحث منشور في مجلة وقائع تاريخية، العدد ٢٦، القاهرة (مركز البحوث والدراسات التاريخية . كلية الآداب . جامعة القاهرة)، يناير ٢٠١٧م.

[٦] منال محمد السيد (دكتور): بعض مظاهر الحياة في القاهرة في ضوء رحلة الرحالة الألماني مارتين بوم جارتين أواخر عصر سلاطين المماليك، بحث منشور في مجلة المؤرخ المصري، العدد ٥٤، القاهرة (قسم التاريخ . كلية الآداب . جامعة القاهرة)، يناير ٢٠١٩م.

ببولاق"، وختمت بشأن سفارته "وظل الأمير قرقد بن عثمان في مصر يتمتع بالترحاب والحفاوة طول مدة إقامته في مصر، وعندما عزم على مغادرة مصر في ربيع الآخر عام ٩١٦هـ/ ١٥١٠م طلع إلى القلعة واستأذن السلطان في العودة إلى بلاده، فأذن له في ذلك" [٧].

ولما كانت المقالة قد جانبها الصحة في وضع تاريخ سليم في أكثر من مناسبة لزمن زيارة مارتن بومجارتن للقاهرة، فقد انتهت بها لأمور مغايرة للتلازم التاريخي، وليس لها علاقة بنص مارتن بومجارتن. ففي الواقع، ربطت المقالة في تواريخ متضاربة كما يتبين من صفحاتها، العرض العسكري الذي شاهده مارتن بومجارتن، بأمير عثماني وصل القاهرة بالفعل سنة ١٥٠٩م، في حين كانت زيارة مارتن بومجارتن لمصر سنة ١٥٠٧م/ ٩١٣هـ، أي أنه وصل القاهرة بعد انتهاء رحلة مارتن بومجارتن لها بعامين [٨]،

ويمكن القول برغم ذلك، إنه قدر لمارتن بومجارتن معاصرة سفارة عثمانية زمن زيارته. ولكن الضيف لم يكن بأي حال من الأحوال قرقد بن السلطان بايزيد الثاني، وإنما كان سفيرا مرسلا من قبله سنة ١٥٠٧م بمهمة رسمية للسلطان قانصوه الغوري لا نعرف طبيعتها. ولقد أوضحنا في بحثنا السابق عن مارتن بومجارتن أن السفينة التي أقلته وصلت في نفس يوم وصول السفينة التي كان على متنها مارتن بومجارتن وتغري بردي الترجمان إلى ميناء الإسكندرية (التاسع من سبتمبر سنة ١٥٠٧م / جمادى الأولى سنة ٩١٣هـ)، بل وحدث احتكاك بين السفينتين كاد أن يتطور لمعركة بينهما في ميناء الإسكندرية، لولا التزام السفينتين بقواعد أمن الميناء. وهو السفير الذي أشار مارتن بومجارتن إلى حضوره العرض العسكري الذي شهده في القاهرة في الثاني من أكتوبر سنة ١٥٠٧م، ولكنه لم يسجل على الإطلاق أنه أقيم لأجله أو على شرفه، كما لم يسجل هدف سفارته، ولم يفعل بدوره ابن اياس الذي أورد خبر السفارة كما سيتضح [٩].

والواقع، فإن المقالة جاءت بهذا الشكل، في مجموع صفحاتها، وصفا لوصول أمير عثماني، جاء إلى مصر بنص المقالة في سنة ١٥٠٥م في رواية، وسنة ١٥٠٩م في أخرى، لم يرد ذكره في رواية مارتن بومجارتن. واستعراضا للعلاقات المملوكية العثمانية، وتفاصيل استقبال قانصوه الغوري لعدد من السفارات الإسلامية، ومراسم

---

(٧) منال محمد السيد: العروض العسكرية أواخر دولة المماليك، ص، ٢٠٠، ٢٠٣، ٢١١، ٢١٢.

(٨) عن كل ما يتعلق بوصول قُرْقُد بن أبي يزيد بن عثمان إلى مصر عبر ميناء دمياط سنة ١٥٠٩م/ ٩١٥هـ لمقابلة السلطان قانصوه الغوري للتوسط له لدى والده، انظر: ابن إياس (محمد بن أحمد بن إياس الحنفي): بدائع الزهور في وقائع الدهور، حققها وكتب لها المقدمة والفهارس محمد مصطفى، الجزء الرابع من سنة ٩٠٦هـ إلى سنة ٩٢١هـ، ١٥٠١م إلى ١٥١٥م، الجزء الخامس من سنة ٩٢٢هـ – ٩٢٨هـ (١٥١٦ – ١٥٢٢م)، القاهرة (الهيئة المصرية العامة للكتاب)، ١٤٠٤ هـ/ ١٩٨٤م، ج ٤، ص ١٥٢– ١٥٥، ١٥٧، ١٥٨، ١٦٠، ١٦٧، ١٨٦ . ١٨٧.

(٩) Martin Baumgarten, Op., Cit., pp. 435 – 6.

استقبالها، وهي أمور لا علاقة لمارتن بومجارتن بها، ولم يُقدر له مشاهدة أي منها، لسبب بسيط أنها كانت لاحقة زمنيا لزيارته. فقد كانت زيارة مارتن بومجارتن للقاهرة تحديدا فيما بين الثامن والعشرين من سبتمبر سنة ١٥٠٧م، والرابع عشر من نوفمبر سنة ١٥٠٧م، كما نجده ورفقته وقد عادوا لمدينته الأم كويستين Kuesstein في التاسع والعشرين من يوليو سنة ١٥٠٨م، بعد انتهاء زيارتهم لفلسطين وبلاد الشام، كما تسجل يوميات الرحلة ذلك بما لا يدع مجالا للشك.

كذلك فقد بالغت المقالة في وصف قانصوه الغوري وصفاته الشخصية وكرمه في استقبال سفارات عدة ليس من بينها أيا مما شاهده مارتن بومجارتن. في الوقت الذي تحتوي فيه يوميات الرحلة للمدقق فيها على سفارات وصلت إلى مصر زمن زيارته، قام مارتن بومجارتن بذكر تفصيلات عنها، فضلا عن تسجيله لألقاب الغوري الرسمية بشكل يكاد يكون متطابق مع ألقابه كما جاءت في الوثائق العربية المحفوظة بالأرشيفات الإيطالية، كما سيتبين لاحقا في بحثنا هذا.

أما المقالة الثانية التي احتوت على مشاهدات مارتن بومجارتن في القاهرة، فقد جانبها الصحة والدقة في كثير من مواضعها. فقد ذكرت المقالة الثانية شأنها شأن المقالة الأولى عدة تواريخ مختلطة لزيارة مارتن بومجارتن لمصر ليس من بينها تاريخا صحيحا. إذ جاء فيها "الرحالة الألماني مارتين بوم جارتين الذي زار مصر والشام في أوائل القرن العاشر الهجري أواخر القرن السادس عشر الميلادي وبالتحديد ٩١٥هـ / ١٥٠٥م" [١٠]. ولم يقتصر هذا الخلط الزمني والذي وصل لحد القول إنها تمت في أواخر القرن السادس عشر الميلادي بدلا من أوائله، وتحديد سنوات مخالفة لموعد زيارة تاريخ مارتن بومجارتن، إنما امتد ذلك لتوقيتات زيارة الرحالة الأوروبيين الذين افترض البحث مقارنة بعض نصوصهم برواية مارتن بومجارتن. إذ حددت موعد زيارة البلجيكي جوس فان جيستيل Joos van Ghistèle بسنة ١٤٩٩م [١١]، في حين أنها كانت في سنة ١٤٨٢م. ويؤخذ على المقالة التعريب الخاطئ لأسماء العديد من الرحالة الأجانب. فعلى سبيل المثال، نجدها تحيل القارئ لرحالة دعته سانت فوجيه ولم تزد[١٢]، ولم تكن تعني به سوى الرحالة الفرنسي أوجييه الثامن سيد دانجلير Ogier VIII Seigneur d` Anglure الذي زار القاهرة سنة ١٣٩٥م، ولم يكن إطلاق اسم سانت فوجيه عليه، سوى نقل للعربية لعنوان الرحلة وهو Le Saint Voyage وتعني "الرحلة المقدسة" على أنه اسم الرحالة. ومن اللافت أن بيانات المصادر الأجنبية بها على قلتها، وعناوينها وسنوات نشرها بما فيها كتاب مارتن بومجارتن مكتوبة بصورة غير سليمة.

---

[١٠] منال محمد السيد: بعض مظاهر الحياة في القاهرة، ص ٢٤٢.

[١١] منال محمد السيد: بعض مظاهر الحياة في القاهرة، ص ٢٤٤.

[١٢] منال محمد السيد: بعض مظاهر الحياة في القاهرة، ص ٢٤٥.

ونسبت المقالة عدة أمور للقاهرة لا تتصل بها، فقد أوردت أن "من عادات أهالي القاهرة التي وصفها مارتين أيضًا أنه عندما أنه عند وفاة أحدهم فإنهم يلطخون ويلوثون أنفسهم بالروث والقذارة، عندما يبكون على موتاهم" [١٣]، وهو أمر غير دقيق. والواقع أن مارتن بومجارتن عندما ذكر ذلك، كان في سياق حديثه عن أهل الريف المصري بوجه عام، وأهل فوة بصفة خاصة، أثناء رحلته النهرية من رشيد في طريقه للقاهرة، كما أوضحنا في بحثنا عن الإسكندرية ومدن الدلتا في يوميات مارتن بومجارتن. وتكرر الأمر عندما ذكرت المقالة معلومات عن الازدهار الزراعي في غير موضعها، فالمقالة مخصصة لأحوال القاهرة، وحديث مارتن عن الزراعة جاء في إطار وصفه لدلتا النيل، مما قد يسبب نوعا من الظن بأن الزراعة كانت أحد الأنشطة البشرية، وعنصرا من عناصر الحياة الاقتصادية بالقاهرة. وكررت المقالة خطأ المقالة السابقة من أن مارتن بومجارتن شاهد وصول الأمير العثماني قرقد بن يزيد والعرض العسكري الذي أقيم لأجله، وهو ما أثبتنا عدم صحته على الإطلاق.

وأسهبت المقالة في ذكر أمور لم يرد بشأنها شيء في رواية مارتن بومجارتن، كمسألة الحمامات العامة في القاهرة، وأفردت صفحات لها. في الوقت الذي خلت فيه المقالة من الكثير مما سجله مارتن بومجارتن عن القاهرة، أو وصفه عنها، فقد أغفلت ذكر مجاورات المدينة كقرية المطرية ومدينة الخانكة، واستعداداته لزيارة سيناء. كما ذكرت وصف مارتن بومجارتن لموكب عودة الترجمان الأكبر لبيته، والاحتفال المتعلق به، ومد السماط في قصره لأجل ذلك، كما لو كان موكبًا يوميا اعتياديًا ووجبة يومية له، دون تفسير لسبب تنظيم هذا الموكب، وهو عودته للقاهرة بعد غياب طويل عنها في سفارته إلى أوروبا.

هذا بعض من كل، مما يمكن قوله في هذا الأمر، لذا لزمت الإشارة، حرصا منا على الحقيقة التاريخية، وقبل المضي في عرض ما سجله مارتن بومجارتن عن القاهرة ومجاوراتها والمنطقة الشرقية وسيناء، بدقة وموضوعية تعطى هذه اليوميات ما تستحق أن تشغله بين مصادر تاريخ القاهرة بصفة خاصة ومصر بصفة عامة في العصر المملوكي.

البداية:

مارتن بومجارتن، هو نمساوي من أصل ألماني. جاء مولده سنة ١٤٧٣م، في مدينة كويستين التابعة لدوقية بافاريا Bavaria. والتي أخذها الإمبراطور ماكسيميليان الأول Maximilian I إمبراطور الإمبراطورية الرومانية المقدسة (١٤٩٣ – ١٥١٩م) من دوقية بافاريا سنة ١٥٠٤م، ليُلْحِقَهَا في العام التالي (١٥٠٥م) بمقاطعة تيرول Tyrol النمساوية. ولأصله النبيل حصل مارتن على تربية وتعليم يتفقان مع مولده. وما أن مر بمرحلة الطفولة وترك

[١٣] منال محمد السيد: بعض مظاهر الحياة في القاهرة، ص ٢٥٢.

المدارس، انخرط في النظام العسكري، وأمور الحرب، وتميز فيهما. وفي سنة ١٤٩٩م، تزوج وهو في سن السادسة والعشرين من زوجته الأولى بينيجنا Benigna. ونتج عن هذه الزيجة ثلاثة أولاد توفوا جميعا وهم صغار، ولحقت بهم أمهم حزنًا عليهم سنة ١٥٠٥م. فقرر نتيجة لحرمانه منهم، وللخروج مما أصابه من حزن عليهم، القيام بزيارة لبيت المقدس ودير القديسة كاثرين. ولتحقيق ذلك، نفذ نذره سريعا في رحلة تكلف فيها الكثير من المال والجهد، اصطحب فيها معه خادمه جورج George (جريجوري)، وقس يسمى فينسنت Vincent (فينسنتوس Vincentus).

وفي شهر أبريل من سنة ١٥٠٧م، توجه مارتن بومجارتن ورفقته من منزله في كويستين بالنمسا نحو مدينة البندقية. ومع شروق شمس السادس والعشرين من يوليو بدأت السفينة التي استقلها ورفقته في الإبحار نحو الإسكندرية، فوصلوها في التاسع من سبتمبر بعد عدة وقفات، ومرورها بعدة مدن وجزر بالحوض الشرقي للبحر المتوسط، من أبرزها مدينة روفيجنو Rovigno في البحر الأدرياتيكي، وميناء بولا Pola، وراجوسا Ragusa في دالماشيا Dalmatia، وجزيرة كورفو Corfu، وشبه جزيرة المورة Morea، التي تقع بين البحرين الإيجي والأيوني، وليبانتو Lepanto إحدى مدن المورة، ثم مدينة كانديا Candy بجزيرة كريت ومرت بعدها بجزيرة سكاربانتو Scarpanto التابعة للبندقية والتي تتوسط الطريق بين كريت ومصر[١٤].

وبعد هذه الرحلة البحرية الطويلة أمضى مارتن بومجارتن قرابة الأسبوعين في الإسكندرية فيما بين التاسع والثاني والعشرين من سبتمبر، غادرها بعدها في طريقه إلى القاهرة في رحلة نهرية قصيرة عبر نهر النيل انطلاقا من رشيد، وهو ما أفردنا له بحثنا السابق عنه. ليصل مارتن بومجارتن ورفقته بعدها إلى القاهرة في أواخر شهر سبتمبر سنة ١٥٠٧م، حيث بدأت مرحلة جديدة من مشاهداته في مصر، وهو ما سنخصص له في هذا البحث.

الوصول لميناء بولاق، بوابة القاهرة النهرية:

في اليوم الثامن والعشرين من سبتمبر سنة ١٥٠٧م، وكما يقول مارتن بومجارتن لاحت لأنظارهم أهرامات الجيزة، فعرفوا أنهم ليسوا بعيدين عن القاهرة. وأشار لوصول سبع سفن تنتمي لدولة مجاورة محملة بكل أنواع المؤن

(14) Martin Baumgartin, The Travels of Martin Baumgatin a Noble Man of Germany through Egypt, Arabia, Palestine, and Syria in Three Books, to which is prefixed the Life of the Author, translated, and corrected from the Latin to English by. Joseph Scaliger, in. a Collection of Voyages and Travels, edited by Awnsham and John Churchill, 4 volumes, London, 1704, vol I, pp 426 – 432.

في نفس اليوم. وفي المساء وصلوا إلى ميناء بولاق Bulaco الميناء النهري المجاور للقاهرة لمن يأتون إليها عبر النيل [١٥].

وجدير بالذكر أن مشهد الأهرامات للواصل إلى القاهرة من الإسكندرية عن طريق نهر النيل، كان أول ما يلفت نظر الزائر الأوروبي عند الوصول لميناء بولاق، فقد كان ذلك حال الربي الإيطالي عوباديا جاريه دا بيرتينورو Obadiah Jaré da Bertinoro [١٦] والذي ذكر أنها المخازن التي شيدها نبي الله يوسف [١٧].

وفي مقارنة مع رواية الرحالة الألماني أرنولد فون هارف [١٨] Arnold von Harff، حال وصوله للقاهرة صيف سنة ١٤٩٧م قادما من الإسكندرية عبر نهر النيل، نجده لم يأت على ذكر ميناء بولاق، ولكنه سجل أنهم عند

---

(15) Ibid., Op. Cit., p. 441.

(١٦) **عوباديا جاري دا بيرتينورو (١٤٨٧م):** كان الربي الإيطالي عوباديا جاري دا بيرتينورو، من أكثر رجال الدين اليهود تميزا في زمانه. ويتضح من ثلاثة خطابات تركها لنا، أنه هاجر إلى فلسطين قادما من إيطاليا سنة ١٤٨٧م. ولقد زار الإسكندرية في طريقه إليها، وأمضى أسبوعا بالإسكندرية بداية من ١٤ يناير سنة ١٤٨٧م، وترك لنا وصفا لها. وبعد هجرته لفلسطين أقام في بيت المقدس وكان أحد قادة اليهود وأقام بها حتى وفاته سنة ١٥٠٠م. انظر:

Obadiah Jaré da Bertinoro, The Letters of Obadiah Jaré da Bertinoro, in. Jewish Travellers, edited, with an introduction, by Elkan Nathan Adler, London, 1930, p. 209.

(17) Ibid., Op. Cit., 224.

(١٨) **أرنولد فون هارف (١٤٩٧م):** رحالة ألماني وُلد سنة ١٤٧١م، كابن للنبيل آدم فون هارف Adam von Harff، ذو المكانة المميزة في بلاطي أدواق جوليخ Jülich، وجيلدرس Gelders، الواقعتين بالقرب من مدينة كولونيا Cologne. ولا يعرف شيئا عن صبا وشباب أرنولد فون هارف، وإن كان قد أشار من خلال روايته أنه بدأ رحلته للشرق في نوفمبر سنة ١٤٩٦م، وهو في سن السادسة والعشرين، وأنه رجع إلى كولونيا في نوفمبر سنة ١٤٩٩م. وبعد عودته، ورث العديد من ممتلكات أعمامه، كما تزوج في سنة ١٥٠٤م، من مارجاريث فون ديم بونجارت Margarethe von Dem Bongart، ولكنه لم يتمتع بذلك كثيرا إذ ما لبث أن توفي في العام التالي. ورغم قلة ما أورده من تواريخ لرحلته، تجعل من الصعوبة بمكان التحديد الزمني الدقيق لمحطات تلك الرحلة، إلا أنه ولحسن الحظ ومن خلال ما أورده من أنه وصل البندقية في ٣ أبريل سنة ١٤٩٧م، ومنها ركب سفينة تجارية نقلته إلى الإسكندرية في سفرة كانت تستغرق ما يزيد عن الشهر، ولما كنا نجد كذلك أرنولد فون هارف يغادر القاهرة في طريقه لسيناء في ٢ يوليو من نفس العام بعد أن أمضى بها قرابة الشهر؛ فيمكن القول إن زيارته للإسكندرية ومدن دلتا النيل كانت في ربيع سنة ١٤٩٧م، وتحديدا في وقت ما خلال شهري مايو ويونيو من هذا العام، وجاء وصفه لمشاهداته عنها معبرا عن أحوالها وقتذاك. انظر:

Arnold von Harff, The Pilgrimage of Arnold von Harff. Knight, from Cologne, through Italy, Syria, Egypt, Arabia, Ethiopia, Nubia, Palestine, Turky, France and Spain, which he

وصولهم للقاهرة وجب أن يرسلوا للترجمان الأكبر طلبا لمساعدتهم في الهبوط من سفينتهم. وما أن نزلوا من السفينة وجب تفحصهم وأمتعتهم في مبنى للجمارك كائن هناك، ودفع ما قيمته عشرة في المئة على مجمل محتويات أمتعتهم، ودوكاتين بندقيتين مكسا عن كل تاجر وخمس دوكات Ducat [١٩] عن الحاج. في الوقت الذي سجل فيه ليو الإفريقي الشهير بالحسن بن الوزان [٢٠] عن ميناء بولاق النهري "بولاق ربض كبير يبعد مسافة ميلين تقريبا عن

Accomplished in the Years 1496 to 1499, translated from the German and edited with notes and an introduction by. Malcolm Lettes, F. S. A., London. 1946, pp. XIII – XIV, XXXIII – XXXV.

[١٩] **الدوكات:** تم ضرب هذه العملة في البندقية لأول مرة سنة ١٢٨٤م، وكان وزنها ثابت يقدر متوسطه بحوالي 3.51 جرام ذهب. ولقد سادت الدوكات عالم التجارة في الفترة المتأخرة من العصور الوسطى لوزنها الثابت ونقائها. ولقد وصفها أحد الباحثين بأنها "دولار العصور الوسطى" مقارنة بما يمثله الدولار من مكانة في عالم الاقتصاد المعاصر. كذلك فقد سادت الدوكات السوق المملوكية بداية من سنة ١٣٩٩م / ٨٠١هـ، لأن العملات المملوكية كان يعوزها النقاء والوزن الثابت. ولقد بذل السلاطين المماليك جهودا كبيرة لإنهاء هذه السيادة بإصدار عملة جديدة في مواجهة الدوكات. وتوجت تلك المحاولات بإصدار الدينار الأشرفي نسبة إلى السلطان الأشرف برسباي سنة ١٤٢٥م، والذي حل بنجاح محل الدوكات كعملة ذهبية أولى في سلطنة المماليك حتى نهايتها. ولمزيد من التفاصيل حول دوكات البندقية والدينار المملوكي ومحاولة كل منهما الاستئثار بعالم الاقتصاد في دولة المماليك، انظر:

Bacharach, J. L., The Dinar versus the Ducat, in. International Journal of Middle East, vol, 1973, pp. 77 – 96.

(٢٠) **ليو الإفريقي:** هو الحسن بن محمد الوزان الزياتي. وُلد نحو عام ١٤٨٣م، وفي رأي آخر ما بين عامي ١٤٨٩م، ١٤٩٥م، بمدينة غرناطة. والحسن هو اسمه، ومحمد اسم والده، والوزان لقب أسرته. وانتقل مع أسرته صغيراً إلى فاس حيث درس على أعلام القرويين. ولقد لفت نبوغه نظر سلطان فاس محمد الوطاسي، فقربه إليه وأسند إليه مهام سياسية خطيرة. وكانت تلك المهام السياسية بالإضافة للنشاط التجاري لأسرته هي ما دعاه للقيام برحلات عديدة داخل المغرب وخارجه، وتسجيل مشاهداته في مذكرات شبه يومية غدت أساس كتابه الجغرافي "وصف إفريقيا". ومثلت رحلته إلى تونس في طريق الرجوع للمغرب آخر رحلاته. ويبدو أنه مكث بها حوالي السنتين، إذ نجده في سنة ١٥١٨م، وفي قول آخر سنة ١٥٢٠م، يبحر من تونس عائدا للمغرب، ولكن حظه العسر أوقعه في أيدي قراصنة إيطاليين أسروه بالقرب من جزيرة جربة، وأخذوه إلى نابولي، ثم قدموه هدية للبابا ليو العاشر Leo X (١٥١٣ . ١٥٢١م) في روما، الذي سُر بهذا العالم العربي وتوثقت الصلة بينهما. ولعل من أسباب هذا التقارب ذكاء الحسن الوزان، وسرعة تأقلمه مع البيئة المسيحية. إذ تظاهر بالتمسح بالمسيحية وحمل اسم مالكه فصار يدعى ليون الإفريقي، وإن كان قد استمر على الإسلام طوال السنين الثلاثين التي قضاها أسيرا في إيطاليا. ولقد شُغل خلالها بتدريس اللغة العربية للخاصة من رجال الكنيسة، ولعامة الطلبة في مدرسة بولونيا. إضافة لما وضعه من مؤلفات باللغة الإيطالية أو اللاتينية في التاريخ والجغرافيا واللغة. وتتصل موضوعاته اتصالًا وثيقا بالمسلمين وبلادهم ولسانهم. وفي سنة ١٥٥٠م، اختفى الحسن الوزان من روما في ظروف غامضة، وتوجه إلى تونس حيث عاد لحياته

المدينة المسورة. ولكن على طول الطريق بيوتا ومطاحن تديرها الحيوانات. وقد بني هذا الربض القديم جدا على ضفة النيل ويضم حوالي أربعة آلاف أسرة. ويشتمل على كثير من الصناع والباعة ولا سيما تجار الحبوب والزيت والسكر. وتوجد في هذا الحي أبنية جميلة كالجوامع والبيوت ومدارس الطلاب. والبيوت المبنية على ضفة النيل على الخصوص، جميلة جدا، وإنها لمتعة كبيرة أن يرى الإنسان من نوافذ هذه البيوت السفن التي تأتي من طريق النيل لميناء القاهرة الواقع في هذا الربض. ويظهر هنا أحيانا حوالي ألف مركب في الميناء ولاسيما في موسم حصاد الحبوب. وهنا يقف موظفو الضريبة الذين يراقبون البضائع القادمة من الإسكندرية أو من دمياط. غير أن هذه البضائع لا تخضع إلا لضرائب خفيفة بعد أن دفعت عنها رسوم المكس عند إنزالها على الشط. ولكن البضائع التي تأتي من مصر هي وحدها التي تدفع رسما كاملا" [٢١].

وذكر السفير الإيطالي دومينيكو ترافيزان [٢٢] أن بولاق أحد ضواحي المدينة الخمس. والتي تقع مثلها مثل مصر القديمة على النيل. وكانت بولاق تنبئ عن استمرار الرواج التجاري بالقاهرة في مطلع القرن السادس عشر

الإسلامية الأولى. وعند هذا الحد يسدل الستار عليه، ولا يعرف هل بقي في تونس أم عاد إلى أهله في فاس. كذلك فمن غير الممكن تحديد مكان وتاريخ وفاته، إلا أنه بالاستطاعة القول بإنه توفي بعد عام ١٥٥٠م. ويعد كتاب "وصف إفريقيا" القسم الثالث من كتاب الجغرافيا العامة الذي ألفه الحسن الوزان بالعربية، ثم ترجم المؤلف هذا القسم إلى الإيطالية عام ١٥٢٦م، بمدينة روما. ويعرف من خلال ما سجله أنه كان بمدينة رشيد في شهر يونيو سنة ١٥١٧م، وأنه أمضى بعض الوقت بمصر، أمكنه خلالها تسجيل العديد من صفحات كتابه وصف أفريقيا عنها. وهي الصفحات التي تم مقارنتها بيوميات مارتن بومجارتن. انظر: الحسن بن محمد الوزان الزياتي (ت ٩٥٧ هـ): وصف إفريقيا، ألفه بالإيطالية جان ليون الأفريقي (وهو الحسن بن محمد الوزان الزياتي)، وترجمه من الإيطالية إلى الفرنسية ترجمة جديدة آ. إيبولار، وترجمه من هذه الترجمة الفرنسية إلى العربية الدكتور عبد الرحمن حميدة، وراجعه الدكتور علي عبد الواحد، القاهرة (الهيئة العامة للكتاب) ٢٠٠٥م، ص ٢٠ . ٢٣. وراجع كذلك: إبراهيم سعيد فهيم محمود (دكتور): العالم العربي في نظر الرحالة الأوروبيين: مصنف آل أدورني كمصدر أوروبي عن تونس في النصف الثاني من القرن ١٥م (دراسة مقارنة)، بحث ضمن أبحاث ندوة "أضواء جديدة على مصادر تاريخ"، منشورات اتحاد المؤرخين العرب بالقاهرة، مجلة حصاد، العدد ٦، القاهرة، ١٩٩٨م، وأعيد نشره في بحوث كتاب بعنوان: إبراهيم سعيد فهيم محمود: دراسات في تاريخ العصور الوسطى وحضارتها، الإسكندرية (دار المعرفة الجامعية)، ٢٠٠٦م، ص ٢٩٨، ح ٢٦.

[٢١] الحسن بن محمد الوزان الزياتي: المصدر السابق، ص ٥٨٥. وكذلك:

Arnold von Harff, Op. Cit, p.101.

[٢٢] **دومينيكو تريفيزان:** سفير جمهورية البندقية من قبلها لدى السلطان قانصوه الغوري سنة ١٥١٢م. وكانت البندقية قد أرسلته لإقناعه بإطلاق سراح جميع التجار الفرنج والرهبان الفرانسيسكان الذين كان قد قبض عليهم، ووضعهم السجون منذ سنة ١٥١٠م، ومطالبته بإعادة فتح كنيسة القيامة بعد اتخاذه قرارًا بإغلاقها أمام الحجاج الأوروبيين. وهي الأوامر التي أصدرها السلطان ردًا على هجمات سفن البرتغاليين في المحيط الهندي، وسفن الإسبتارية في البحر المتوسط على السفن المصرية.

الميلادي، وليس أدل عليه مما سجله من أنها مدينة غنية للغاية، والأموال فيها وفيرة، وأنها مدينة تجارية بشدة، حيث تأتيها كل التوابل وكل المتاجر من الهند، ومن مكة، ومن فارس بطريق القوافل. وعندما تصل قافلة من الهند محملة بالتوابل والبضائع الأخرى يتم نقلها إلى الإسكندرية، وتفريغها هناك ومن ثم شحنها بالسفن [٢٣].

مكان الإقامة في القاهرة:

وفي اليوم التالي، التاسع والعشرين من سبتمبر، أنزل مارتن بومجارتن ورفقته أمتعتهم من السفينة وحَمّلوها على البغال وقادوها أمامهم نحو القاهرة. وخلال الطريق ألم تعب شديد بأحد رفاقهم فوضعوه على أحد البغال، بيد أنهم عندما تقابلوا مع مجموعة من المماليك على ظهر خيولهم، قام المماليك بإلقائه من فوق ظهر البغل على الأرض. وهو ما اعتبره مارتن بومجارتن وقاحة منهم، الأمر الذي دفعه للقول فيما يتعلق بالمماليك – أنه يجب أن يعرف المرء أنه حينما يقابلهم وهم فوق ظهور حيواناتهم، وهو جالسا على ظهر حيوانه، عليه النزول من فوقه واظهار

وفي حين فشلت السفارة الفرنسية التي كان جان ثينو أحد أفرادها في هذا الأمر، نجح السفير البندقي دومينيكو تريفيزان في مسعاه الذي جاء من أجله إلى مصر. والواقع أن قليل من رجالات الدولة من لهم سيرة نشطة، ولعب دورا في الدبلوماسية البندقية مثل دومينيكو تريفيزان. فبداية من سنة ١٤٨٥م وحتى وصوله إلى مصر سنة ١٥١٢م، نجده وقد تم إرساله ممثلا وسفيرا في مناسبات عديدة للتهنئة، أو التفاوض، أو لإجراء مباحثات سلام، أو مفاوضات تجارية، مع دوق ميلان وبابا روما ولدى السلطان العثماني في القسطنطينية، وحكام فلورنسا، وملوك إسبانيا وفرنسا. وفي سنة ١٤٩٧م تم تعيينه Podesta، وهو لقب يمنح لكبار الموظفين المدنيين. وفي سنة ١٥٠٣م أعطي لقب Procurator وهو لقب يمنح للموظفين المسؤولين عن الشؤون المالية، أو حكام للأقاليم الصغيرة. وبهذه الكفاءة الدبلوماسية المميزة جاء دومينيكو ترافيزان لمصر ليتمكن من عقد معاهدة سنة ١٥١٢م مع السلطان قانصوه الغوري. وإلى جانب ذلك كان مهتمًا بدراساته للكلاسيكيات، واستمر في عمله حتى وفاته في ٢٦ ديسمبر سنة ١٥٣٦م عن سن كبيرة. ويوجد قبره في كنيسة سان فرانسيسكو ديلا فيجنا San Francesco della Vigna. وآخر ما يقال بشأن سفارة دومينيكو ترافيزان إلى مصر سنة ١٥١٢م، إن سفينته ألقت مرساتها مدة أسبوع أمام أبو قير، ورحلوا عنه بعد الحصول على أمان الوصول يوم السادس عشر من أبريل، حيث حل بالإسكندرية، وأقام بها فيما بين السابع عشر والثامن والعشرين من أبريل. أما رحلته من الإسكندرية إلى رشيد برا، ووصولا من الأخيرة للقاهرة نهرا، مرورًا بفوة وغيرها من قرى دلتا النيل فقد استغرقت الفترة من التاسع والعشرين من أبريل حتى السادس من مايو. انظر:

Domenico Trevisan, La Relation de l` Ambassade de Domenico Trevisan auprès du Soudan d` Egypte 1512, publié et annoté par Ch. Schefer, Membre de l` Institut, dans. Recueil de Voyages et de Documents pour servir à l`Histoire de la Géographie depuis le XIII^{e} jusque` à la fin du XVI^{e} Siècle, sous la direction de MM. Ch. Schefer, et Henri Cordier, tome. V., Paris, MDCCC XLXXIV, pp. LXV – LXVI.

(23) Domenico Trevisan, Op. Cit., pp. 207 – 8.

التعظيم لهم، وهو ما لم يكن ورفقته يعرفونه قبل أن يتعلموه من تلك الحادثة. وبعد فترة قصيرة دخلوا القاهرة وأقاموا في مكان خصص لهم في منزل تغري بردي الترجمان لحين وصوله للمنزل قادما من سفارته إلى البندقية [٢٤].

ومما يذكر في هذا المقام أن الرحالة الألماني أرنولد فون هارف أقام سنة ١٤٩٧م، في منزل الترجمان الأكبر تغري بردي بصفته تاجرا كما انتحل أثناء وجوده في مصر. في حين ذكر الفرنسي جان ثينو [٢٥] سنة ١٥١٢م

---

(24) Martin Baumgarten, Op. Cit., p. 441.

(٢٥) **جان ثينو:** مقدم دير الفرانسيسكان في مدينة أنجوليم Angoulème الذي تأسس بالمدينة سنة ١٢٣٠م. ولكن، ولما كانت قائمة مقدمي الدير لا تبدأ إلا من سنة ١٥٤٠م فقط، في الوقت الذي لا يمتلك فيه أرشيف أنجوليم أي أوراق تتعلق بجان ثينو، فسنة وفاته مجهولة، ومعلوماتنا عنه مأخوذة من أعماله، وبخاصة رحلته وراء البحار التي تقدم لنا فقط بعض التفاصيل عن حياته. وكان جان ثينو واحداً من المحميين من لويز دو سافوا Louise de Savoie، وابنها فرانسوا دانجليم François d` Angoulème. ولقد أرادت لويز الاستفادة من إرسال جان ثينو كأحد السفراء إلى مصر لكي يذهب لبيت المقدس، للصلاة من أجلها في الأماكن المقدسة، وكتابة اسمها في مهد المسيح في بيت لحم. في حين أراد كونت أنجوليم منه زيارة بلاد فارس لجمع معلومات عن قوة الشاه إسماعيل الصوفي الذي لفتت غزواته أنظار الأمراء المسيحيين، ورأوا فيه منافسا منتظرا لقوة العثمانيين. ومن فارس كان يجب على جان ثينو الذهاب إلى الهند. غير أن هذا المشروع لم يتم وضعه موضع التنفيذ. هذا، ولقد عُهد بجان ثينو لعناية فرانسوا دو بونجان François de Bonjean، حيث ركب السفينة التي وضعت تحت عناية السفير أندريه لو روا André le Roy. والتي نقلتهم إلى إيطاليا حيث أمضوا فصل الشتاء. ولكن الشعور العدائي ضدهم في تلك البلاد جعلهم يقررون مواصلة السفر، فركبوا سفينة راجوزية في طريقها للإسكندرية. وبهذا الشكل، كان جان ثينو أحد أعضاء سفارة فرنسية أرسلها السلطان لويس الثاني عشر Louis XII ملك فرنسا (١٤٩٨ . ١٥١٥م) للسلطان المملوكي قانصوه الغوري (١٥٠١ . ١٥١٦م) لمطالبته بإطلاق سراح الأخوة الفرانسيسكان ومن بينهم فرانسيسكو سيريانو من سجنهم بالقاهرة. غير أن السفارة لم توفق في هذا الأمر، ولم يقبل السلطان قانصوه الغوري بالوساطة الفرنسية بشأن هؤلاء المعتقلين. وبعد عودته من رحلته إلى الشرق، عاد جان ثينو إلى ديره بأنجوليم. وفي إطار رحلته لمصر، أمضى جان ثينو تسعة عشر يوما في الإسكندرية. فقد وصلها في التاسع والعشرين من شهر فبراير سنة ١٥١٢م، ورحل عنها في الثامن عشر من الشهر التالي (مارس ١٥١٢م) في طريقه إلى رشيد، ومنها عبر رحلة نهرية إلى القاهرة. وترك لنا جان ثينو نص شاهد عيان، عن تلك الفترة في رواية سفره التي سجلها بعد عام ١٥٢٣م، تم مقارنته بما جاء عند مارتن بومجارتن بهذا الشأن. انظر:

Jean Thenaud, Le Voyage d` Outremer (Egypte, Mont Sinay, Palestine) de Jean Thenaud Gardien du Couvent des Cordeliers d` Angoulème, 1512, publié et annoté par Ch. Schefer, Membre de l` Institut, dans. Recueil de Voyages et de Documents pour servir à l`Histoire de la Géographie depuis le XIII^{e} jusque` à la fin du XVI^{e} Siècle, sous la direction de MM. Ch. Schefer, et Henri Cordier, tome. V., Paris, MDCCC XLXXI, pp. LXXVII, LXIX – LXXI, 20, 23.

أحد أفراد سفارة فرنسية إلى السلطان قانصوه الغوري، أن المسيحيين اللاتين كانوا يقيمون في منزل الترجمان مقابل أربعة دنانير أشرفية شهريا [٢٦].

وكتب مارتن بومجارتن عن تغري بردي أنه أسباني المولد كان شماسا في أحد الكنائس عندما كان يقيم في بلده، ثم أصبح مملوكا [٢٧]. ولكنه وبعد نبذه للمسيحية وتحوله للإسلام أصبح حاميا وراعيا للمسيحيين الذين يقيمون في أراضي السلطان. وفي وقت قصير أصبح رجلا صاحب سلطة عظيمة، ويتم استقبال المسيحيين في منزله. وجرت العادة بأن يدفع له كل تاجر قطعتان ذهبيتان، في حين يدفع له كل من يأتي من الخارج لزيارة الأماكن الدينية خمس قطع ذهبية [٢٨].

الاحتفال بعودة الترجمان الأكبر للقاهرة:

تابع مارتن بومجارتن روايته بخصوص تغري بردي الترجمان، فسجل عودته لمنزله في الثلاثين من سبتمبر في حالة من العظمة، مرتديا ملابسا فاخرة قدمتها جمهورية البندقية هدية له [٢٩]. وحضر عودته عددا ضخما من المماليك. ولقد أحدثت زوجاته المتجمعات في الجزء العلوي من المنزل وعددهن خمس وثلاثين نوعا غريبا من الغناء، والضجيج المختلط (لعلها الزغاريد) ترحيبا بعودته للمنزل [٣٠]. ووسط منزله وحيث يوجد فناء ضخم مستدير جلس تغري بردي ومعه الذين قدموا معه، والذين أتوا لتهنئته بسلامة الوصول على سجادة فاخرة، وحول هذا الفناء كان يوجد عددٌ ضخمٌ جدا من الغرف تطل عليه، حيث أقام مارتن بومجارتن في إحداها، ومنها أمكنه رؤية كل ما يحدث في الفناء.

---

(26) Arnold von Harff, Op. Cit., p. 101; Jean Thenaud, Op. Cit., p. 83.

(٢٧) ذكر أرنولد فون هارف عن الترجمان الأكبر أنه مملوك مرتد عن المسيحية، وأصله من جنوة. انظر:

Arnold von Harff, Op. Cit., p. 102.

ولمزيد من التفاصيل ،عن أصل ونسب تغري بردي الترجمان الأكبر، الذي حل كل من أرنولد فون هارف ومارتن بومجارتن وغالبية الأوروبيين الذين زاروا القاهرة بداية من العقد التاسع من القرن الخامس عشر بمنزله أثناء وجودهم في القاهرة، ومقابل ذلك، ودوره في العلاقات المملوكية الأوروبية، ونهاية دوره في البلاط المملوكي، راجع: إبراهيم سعيد فهيم محمود (دكتور): تغري بردي الترجمان ودوره في العلاقات المملوكية الأوروبية، ص ١٩٨ – ٢؛ إبراهيم سعيد فهيم محمود: حركة الحج الأوروبي إلى الأماكن المقدسة في الشرق الأدنى الإسلامي، ج ٢، ص ١٢٥.

(28) Martin Baumgarten, Op. Cit., p. 441.

(٢٩) للمزيد بشأن هذا الثوب الذي كان مطرزا بالذهب ومغطى بفرو السناجيب بما قيمته ثلاثمائة دوكات، راجع: إبراهيم سعيد فهيم محمود: سيرة أوروبي في البلاط المملوكي، ص ٢٥٠.

(30) Martin Baumgarten, Op. Cit., p. 441.

هذا، ولقد وُجد قصر تغري بردي الترجمان داخل أسوار مدينة القاهرة ملاصقا لها، وتميز وفق العديد من الروايات باتساعه وفخامته، فقد ذكره برنارد فون برايدنباخ [٣١] Bernard von Breydenbach بالقصر الرائع المزين بالرسوم والسجاجيد، أما بدرو مارتير دانجلاريا فقد شبهه بالنزل. في حين جاءت تجربة إقامة أرنولد فون هارف في هذا المنزل مخالفة لرأيهما، إذ ذكر أن كل اثنين منهما أقاما في غرفة من غرف بيت الترجمان الأكبر، وأن الغرف كانت عبارة عن فتحات تشبه مواضع الخنازير، لا يوجد بها شيء باستثناء الأرض العارية التي ناموا عليها. وكان عليهم الخروج للشوارع لشراء ما يحتاجون من الطعام، وشاء ما يحتاجونه للشرب من مياه النيل [٣٢].

---

[٣١] **برنارد فون برايدنباخ:** ابن النبيل جيرلاش فون برايدنباخ Gerlach von Breydenbach، أما برنارد، فقد كان رجل دين في أسقفية ماينز Mainz سنة ١٤٥٠م ، وفيما بين عامي ١٤٧٧ – ١٤٩٣م، شغل وظيفة كبيرة في القضاء إذ كان دكتورا في القوانين. وأصبح قسا في سنة ١٤٨٣م، وفي العام الذي تلاه، حصل على منصب رئيس أساقفة كاتدرائية ماينز. وقد انشغل في الفترة ما بين الخامس والعشرين من أبريل سنة ١٤٨٣م، وحتى نهاية يناير سنة ١٤٨٤م بالحج. وكانت وفاته في الخامس من مايو سنة ١٤٩٧م، حيث دفن في كنيسة سيدتنا Chapel of our Lady في كاتدرائية ماينز. ووفقا لروايته، فقد عاش متحررا في بعض سنوات شبابه، ولذلك فقد قام برحلة حجه أملا في تخليص روحه. وجدير بالذكر أنه من بين العديد من روايات الحج، تمثل رواية حج برنارد فون برايدنباخ الرواية الأولى التي طُبعت مع مشاهد أماكن الرحلة. وفيما يختص بالرحلة، فقد بدأها برنارد فون برايدنباخ ومرافقوه، ولاسيما الفنان الحاذق إيرهارد روويخ فون أوترخت Erhard Reuwich von Utrecht في الخامس والعشرين من أبريل سنة ١٤٨٣م، من مدينة أوبينهايم Oppenheim على مبعدة بضعة كيلومترات جنوبي ماينز. فوصلوا البندقية بعد خمسة عشر يوما من السفر حيث عقدوا اتفاقية مع ربان سفينتهم أوجستينو كونتاريني. وفي اليوم الأول من يونيو سنة ١٤٨٣م، أبحرت السفينة من البندقية لتصل إلى يافا في اليوم الأخير من الشهر نفسه. وهناك وجدوا حجاج السفينة الأخرى، ومن بينهم فيلكس فابري، قد سبقوهم إليها بثلاثة أيام. ومن هناك بدأوا رحلتهم في فلسطين، وبنهاية رحلة الحج المعتادة، غادرت المجموعة الرئيسية للحجاج بيت المقدس في الثامن عشر من يوليو في طريقها إلى أوروبا، في حين تبقت المجموعة الراغبة في زيارة دير القديسة كاترين، ومن بينهم برنارد فون برايدنباخ وفيلكس فابري Felix Fabri. وبالفعل، بدأت رحلتهم إلى سيناء في الرابع والعشرين من أغسطس. وذلك حين غادروا بيت المقدس إلى بيت لحم التي تركوها في السابع والعشرين من أغسطس، ليمروا بالخليل وغزة، فصحراء شبه جزيرة سيناء ليأتوا إلى دير القديسة كاترين في السادس عشر من سبتمبر. وبعد قضاء اثني عشر يوما في الدير، بدأت مسيرة عودتهم في السابع والعشرين من سبتمبر. فوصلوا إلى القاهرة حيث قاموا بجولات عديدة، ثم غادروها إلى الإسكندرية محطتهم الأخيرة التي أتوها في السادس والعشرين من أكتوبر ليرحلوا عنها في طريقهم لأوروبا في الخامس والعشرين من نوفمبر، على بضعة مراكب تجارية بندقية. لمزيد من التفاصيل عنه، راجع: إبراهيم سعيد فهيم محمود: حركة الحج الأوروبي، طبعة ٢٠١٩م، ج ١، ص ٤٣ – ٤٥.

[٣٢] لمزيد من التفاصيل عن منزل تغري بردي الترجمان راجع: إبراهيم سعيد فهيم محمود: سيرة أوروبي في البلاط المملوكي، ص ٢١٣ – ٢١٤. وانظر كذلك:

وفيما يتعلق بقصور القاهرة، وبيان قيمتها المعمارية والمادية، حري بالذكر أن إقامة السفير الإيطالي دومينيكو ترافيزان [٣٣] في القاهرة في شهر مايو سنة ١٥١٢م، جاءت في قصر على مبعدة خمسة أميال من ميناء بولاق، في حي وصفه بأنه من أجمل أحياء القاهرة، وأثار جمال القصر إعجابه، وذكر أنه من المستحيل وجود شيئا مماثلا له في المدينة، وقدر تكلفة تشييده بما لا يقل عن مئة ألف دوكات بندقية. وكانت جدرانه مغطاة بالمنحوتات، وعوارضه، والكسوات الخشبية تتلألأ من التذهيب، وأسوار أسفل ما بين العوارض منحوتة ومذهبة. والأرضية مبلطة بالفسيفساء، والأبواب مغطاة بقشرة من خشب الأبنوس والعاج [٣٤].

وبشأن زوجات تغري بردي ذكر الرحالة الألماني فيلكس فابري [٣٥] Felix Fabri سنة ١٤٨٣م أنه كان متزوجا من زوجتين مسيحيتين، في حين أورد أرنولد فون هارف سنة ١٤٩٧م، أنه متزوج من أربع زوجات يقمن معه في منزله [٣٦].

Bernard de Breydenbach, Les Saintes Pérégrinationes de; Bernard de Breydenbach (1483), texte et traduction annotée par le Père F. Larrivaz S. J. Extraits relatifs à l`Egypte suivants l` edition de 1490, Le Caire, 1904, p. 46; Arnold von Harff, Op. Cit., p. 102; Pedro Mártir de Angleria, Una empbajada de los Reyes Católicos a Egipto (Segŭ la “Legatio Babylonica” y el “Opus Epistolarum” de Pedro Mártir de Angleria), traducción, prologo y notas de Luis García, Valladolid, 1947, pp. 96, 176.

[34]Domenico Trevisan, Op. Cit., pp. 169 – 71, 177 – 9.

[٣٥] **فيلكس فابري:** وُلد في مدينة زيورخ Zurich عام ١٤٤١م، أو العام الذي يليه حيث انخرط في سلك جماعة الدومينيكان. ومنذ سنة ١٤٦٨م / ٨٧٣هـ، حتى موته كان قارئا وواعظا في دير مدينة أولم Ulm. ولقد عُرف بوصفه المكتوب لمدينة أولم، ورحلتيه اللتين قام بهما للحج إلى فلسطين ومصر عامي ١٤٨٠م، و١٤٨٣م. وفي رحلته الأولى، صاحب النبيل جورج فون ستين George von Stein كقس خاصًا له. وفي رحلته الثانية، جاء تابعا للنبيل جوهان ترشيس فون والدبورج Johanne Truchess von Waldbourg. ولقد توفي في مدينة أولم في سنة ١٥٠٢م / ٩٠٨هـ. وكان وصفه لرحلته الأولى فقيرا مقارنة بوصفه لرحلته الثانية. للمزيد راجع: إبراهيم سعيد فهيم محمود: سيرة أوروبي في البلاط المملوكي، طبعة ٢٠١٩م، ج ٢، ص ٤٠.

[٣٦] للمزيد راجع: إبراهيم سعيد فهيم محمود: سيرة أوروبي في البلاط المملوكي، ص ٢٠٩ – ٢١٣. وانظر:
Felix Fabri, Le Voyage en Egypte de Félix Fabri, 1483, traduit du Latin et de l` Allemand par le R. P. Jacques Masson S. J., publication de l` Institut Français d` Archéologie Orientale du Caire, 1975, pp. 407 – 8, 411 – 2; Arnold von Harff, Op. Cit., p. 102.

وصف مارتن بومجارتن الاحتفال بعودة تغري بردي، بأنهم وضعوا فوق السجاجيد الفاخرة، مئتين وستين طبق، مليئة بأنواع منوعة جدا من أفضل وأغلى أنواع اللحوم. وبعد تذوق كل ضيف من ضيوفه كل طبق منها، كان ينهض ويقدم شكره المتواضع لتغري بردي، ويطلب الإذن بالمغادرة، ثم يعود لمنزله بوقار ورزانة. وعقب ذلك، تم التهام كل هذه الوليمة في دقيقة بواسطة جمع جائع من الفقراء سُمح لهم بأخذها. وجاء بعد ذلك أناس عظيمة لتقديم تهانيهم لتغري بردي. وكان من بينهم الخليفة الذي قدم في جمع كبير من حاشيته في عظمة وخيلاء للترحيب بتغري بردي، واستقبله الأخير بإجلال شديد. وارتدى الخليفة كما شاهده مارتن بومجارتن ملابسًا شديدة البياض، ووضع تاجًا على رأسه، وكانت لديه لحية سوداء طويلة [٣٧].

ولعل هذا الحديث عن الطعام يقودنا لتناول ما ذكره مارتن بومجارتن عن حرفة الطهي في القاهرة، إذ لاحظ وجود عد ضئيل جدا من المطابخ الخاصة في تلك المدينة، وأن أهلها لا يتناولون لحومهم محشوة، ويأكلون في بيوت عامة، ولعله يقصد بذلك المطاعم والمطابخ. وألمح لوجود عشرة آلاف طباخ في القاهرة، يحمل الغالبية العظمى منهم الآنية على رؤوسهم عبر شوارعها، وهم يطهون الأطعمة التي يبيعونها طوال سيرهم [٣٨].

وهو ما أكده أرنولد فون هارف قبل مارتن بومجارتن بعقد من الزمان، حين لاحظ أن المصريين نادرا ما يطبخون في بيوتهم، وقدر عدد الطهاة في القاهرة بأربع وعشرين ألف طاه، والخبازين بثمان وأربعين ألف خباز، على الرغم من وجود الكثير من الشوارع بدون أي طباخ أو خباز [٣٩].

وأوضح الإيطالي دومينيكو ترافيزان أنه من بين محال القاهرة مجموعة ضخمة جدًا لإعداد الطعام. وكذلك أن أهل القاهرة من المغاربة لا يأكلون أبدا في بيوتهم، ولذا كانوا يدخلون أحد هذه المحال لإحضار وجباتهم. وشكا دومينيكو ترافيزان من استنشاقهم رائحة تسبب لهم الغثيان عندما كانوا يمرون أمامها. ولعل مرجع تلك الرائحة، ما كان يستخدم لإحماء هذه الأفران والطهي فيها. إذ أضاف أن القمح وبقية الحبوب كانوا متوفرين بالقاهرة، وكان يتم طحنهم لدقيق بواسطة رحى تتحرك بواسطة الخيول والأبقار، لأنه ليست هناك طواحين هواء أو تدار بقوة المياه. ولإنضاج خبزهم، كانوا يستخدمون في أفرانهم روث البهائم كالجمال والخيول والأبقار المجفف في الشمس لإشعالها. كما كانوا يستخدمون لطهي بقية الأطعمة لحاء النخيل، والقش المفروم، وذلك لندرة الأخشاب، فقد كان القليل منه يكلف مبلغا كبيرا. وأضاف أن لحوم الأبقار في القاهرة تباع بدون عظم، وتباع بقية الماشية بأسعار رخيصة، وأن طعم الضأن

(37) Martin Baumgarten, Op. Cit., p. 442.

(38) Ibid., Op. Cit., Loc. Cit.

(39) Arnold von Harff, Op. Cit., p. 109.

شهي، وهناك وفرة في الدجاج. وفيما يتصل بالفاكهة ذكر أن أحجام الكمثرى صغيرة، والزبيب رائع، والتمر وفير، والتين لذيذ، ويتوفر الكثير من الشمام والبطيخ [٤٠].

وفسر الحسن بن الوزان الزياتي السبب وراء هذه الظاهرة التي رصدها مارتن بومجارتن بأن نساء القاهرة "لا توجد واحدة منهن تقبل أن تغزل، ولا أن تخيط الثياب، أو تطهو الطعام. ولهذا يجب على الزوج أن يشتري من الخارج الطعام الجاهز المطبوخ من محلات الطباخين والشوائين. والقليل من الناس هم الذين يصنعون طعامهم ببيوتهم، باستثناء العائلات الكثيرة العدد"، وتابع في وصف بديع لطعام القاهريين "وفي هذه المدينة كما في كثير من المدن الأخرى عدد لا يحصى من الذين يتجولون طيلة النهار، وهم يبيعون أشياء مختلفة كالفواكه والجبن واللحم النيء والمشوي، والسلع الأخرى من هذا الصنف"، وأضاف أنه في الشارع الممتد من باب النصر حتى باب زويلة " يضم الحي المسمى بين القصرين دكاكين يباع فيها اللحم المطبوخ في حوالي ستين دكانا، وكلها مجهزة بالأواني القصديرية. ويباع في دكاكين أخرى ماء مصنوع من كل أنواع الزهور، ولأصناف المياه هذه مذاق لذيذ جدا. ولهذا يشرب منه كل الأشراف. أما الذين يبيعونه فيحفظونه في قماقم زجاجية أو من قصدير بديعة جدا ومنقوشة بمهارة. وبعد ذلك تأتي دكاكين أخرى تباع فيها الحلوى المعروضة بشكل أنيق جدا. وتختلف عن تلك التي تباع في أوروبا: وهي من نوعين بالعسل والسكر. ثم يأتي باعة الفواكه الذين يبيعون الثمار القادمة من بلاد الشام كالكمثرى والسفرجل والرمان وما إلى ذلك من الفاكهة التي لا تنمو في مصر. ويوجد بين هذه الدكاكين عدد آخر من دكاكين مبعثرة تباع فيها الزلابية والبيض المقلي، والجبن المقلي"[٤١].

<u>مثال للحياة الاجتماعية لعلية القوم من المماليك:</u>

وفي موضع آخر وصف مارتن بومجارتن متع تغري بردي مع زوجاته، فجاء ذلك أنموذجا للحياة الاجتماعية لعلية القوم من المماليك في العصر المملوكي. إذ سجل أنه وفي اليوم الأول من أكتوبر سنة ١٥٠٧م، استقدمهم تغري بردي إليه، لإلقاء نظرة قريبة على المنزل والروعة التي يعيشها. ولقد دخلوا بخوف مقصورته، وعندما جاءه رجل عظيم ممن يدعونه أمير Armireio للحديث معه، وخشية شك الأمير فيه لحديثه مع المسيحيين، أمرهم بالتواري حتى ذهابه. وفي المساء استدعاهم تغري بردي ثانية، حيث أخذه وصحبته واثنين من الرهبان الفرانسيسكان إلى مقام زوجاته ثم أمرهم باتخاذ مقاعدهم. وجلس وحوله زوجاته الخمس وثلاثين في غرفة مغطاة بالسجاجيد الحريرية، وكل

(40) Domenico Trevisan, Op. Cit., pp. 209 – 210.

[٤١] الحسن بن الوزان الزياني: المصدر السابق، ص ٥٨٠، ٥٩٢.

منهن تحاول مسرته وجذبه إليها. فأخذ في مداعبتهن، في الوقت الذي حافظ فيه مارتن بومجارتن ومن معه على هدوئهم إزاء ما يشاهدونه. وأوضح مارتن بومجارتن أن روائح الزيوت والعطور حول النساء كانت تفوح برائحة طيبة للغاية، كما كانت الحلويات والمشروبات التي قُدمت لهم وبشهادته طيبة جدا، ونادرة جدا، لدرجة أنه لا يمكن تخيل شيء أفضل منها في نوعها. وعندما حان وقت النوم، سمح لهم بالتراجع، بعد أن وعدهم بتسليتهم في اليوم الثاني ببعض العروض الرائعة [٤٢].

وحري بالقول إن فيلكس فابري وبرنارد فون برايدنباخ سبقا مواطنهما مارتن بومجارتن بنحو ربع قرن في تأكيد هذا التوجه في سلوك تغري بردي الترجمان بوصفين مشابهين لما ذكره الأخير عن تأثر تغري بردي بنشأته الأوروبية وعن حبه للتسلية وسمره الليالي مستمتعا بالرقص والغناء والعزف في فناء قصره، ومشاركة بعض نسائه له في الغناء، وعدم تحرجه من إظهارهن وهن في غرفة نومه [٤٣].

وما دمنا قد أتينا على ذكر بحبوحة ورفاهية العيش لعلية القوم في أخريات العصر المملوكي، نجد الحسن بن الوزان، وبدوره وفي إطار السلع الترفيهية لعلية القوم يذكر أنه على جانب الشارع الرئيسي في حي بين القصرين "يقع حي باعة العطور كالزباد، والمسك والجاوي. وهذه المنتجات وفيرة، حتى إنه لو أراد أحدهم شراء أونس واحد من المسك، يعرض عليه مئة رطل، وهو أمر عجيب" [٤٤].

ولعل ما يستوجب القول هنا أن مارتن بومجارتن شأنه شأن كثير من الرحالة الأوروبيين لم يفرق بين زوجات تغري بردي الترجمان وبين جواريه وسرائره. عندما أورد هذا العدد كزوجات لتغري بردي، فمما لا شك أنه كان متزوجا لأربع فقط منهن كما أشار بذلك أرنولد فون هارف، وبقيتهن كن من الجواري.

كذلك ومما يلفت النظر أن الحرية التي أشار مارتن بومجارتن لتمتع المرأة القاهرية بها في تلك الفترة الزمنية، لم تكن قاصرة فقط على نساء الطبقة العليا وإنما حظيت بها الكثير من نساء الطبقة الدنيا. فقد ذكر الحسن بن الوزان عن نساء مدينة فوة "وتتمتع النسوة بكثير من الحرية حتى إنهن يقضين النهار حيثما أردن. ويعدن في المساء لبيوتهن دون أن يسألهن أزواجهن عما فعلن". أما نساء القاهرة فقد دون عنهن "يظهر البذخ على لباس النساء، فهن يخرجن متبرجات بالحلي التي يلبسنها على شكل أطواق على الجبين وفي العنق. ويضعن فوق رؤوسهن

---

(42) Martin Baumgarten, Op. Cit., p. 443.

[٤٣] لمزيد من التفاصيل، راجع: إبراهيم سعيد فهيم محمود: سيرة أوروبي في البلاط المملوكي، ص ٢٠٩ – ٢١٣. وانظر: Felix Fabri, Op. Cit., pp. 367 – 8, 401, 411, 434 – 435, 578; Bernard de Breydenbach, Op. Cit., pp. 40, 46, 50.

[٤٤] الحسن بن الوزان الزياني: المصدر السابق، ص ٥٨١.

عصابة غالية الثمن، ضيقة تعلوها ريشة على شكل أنبوب. وتتألف كسوتهن من ثوب من جوخ ذي أكمام طويلة. وتختلف طبيعة القماش، ولكن الثوب يكون مفصلا بعناية ومزدانا بتطريزات بديعة. ويلففن جسومهن بوشاح من قماش القطن الرقيق جدا والشديد النعومة والمستورد من الهند. ويضعن على وجوههن برقعا صغيرا أسود اللون من قماش غاية في الرقة، ولكنه خشن نوعا ما حتى ليقال إنه مصنوع من الشعر. وبفضل هذا البرقع يستطعن رؤية الرجال دون أن يمكن التعرف عليهن. وينتعلن في أقدامهن خفا أو أحذية جميلة على الطراز التركي. وهذه النسوة عاليات الكلفة كثيرا ويعلقن أهمية كبرى على ما يقال، حتى إنه لا توجد واحدة منهن تقبل أن تغزل، ولا أن تخيط الثياب، أو تطهو الطعام". ويضيف "هذا ويخلو الحياء من أحاديث سكان القاهرة. ولنضرب صفحا عن كل هذه العيوب. ولكن لنذكر أن كثيرا ما تشتكي زوجة ما أمام القاضي من أن زوجها لا يقوم كل ليلة كما يجب بوظيفته الزوجية. وكثيرا ما يكون هذا سببا للطلاق، والزواج ثانية" [٤٥].

كذلك سجل الإيطالي دومينيكو ترافيزان عن نساء القاهرة أنهن يخرجن للتنزه في شوارع المدينة، وهن ترتدين ملابس بيضاء قطنية تغطي أجسادهن كلية، بحيث لا يرى منها شيئا سوى اليدين وبشكل نادر. وكن يجلسن وسيقانهن مفتوحتين فوق حمير صغيرة. وكانت أيادي بعضهن مرسومة، وأظافرهن مدهونة باللون الأحمر. وهن تستمتعن في المحال بإنفاق مبالغ كبيرة على النسيج الحريري، والعطور. وعدد المحال كثير، ولكن مساحتها جميعا صغيرة. ويباع فيها الحرير، والقماش المموج، والأثواب المطرزة الواردة من بلاد فارس. وكذلك المسك، وعطر الزباد، والعنبر، والعطور الأخرى. وفي هذه المحال توجد كميات عظيمة من الأقمشة الكتانية، والقطنية، وكتان كامبراي Cambrai (مدينة بفرنسا)، والشيفون، وكل أنواع المناشف الحريرية والكتانية المزركشة في نهاية جانبيها [٤٦].

[٤٥] الحسن بن الوزان الزياني: المصدر السابق، ص ٥٧٧، ٥٩١ – ٥٩٣.

[46] Domenico Trevisan, Op. Cit. pp. 211 – 212.

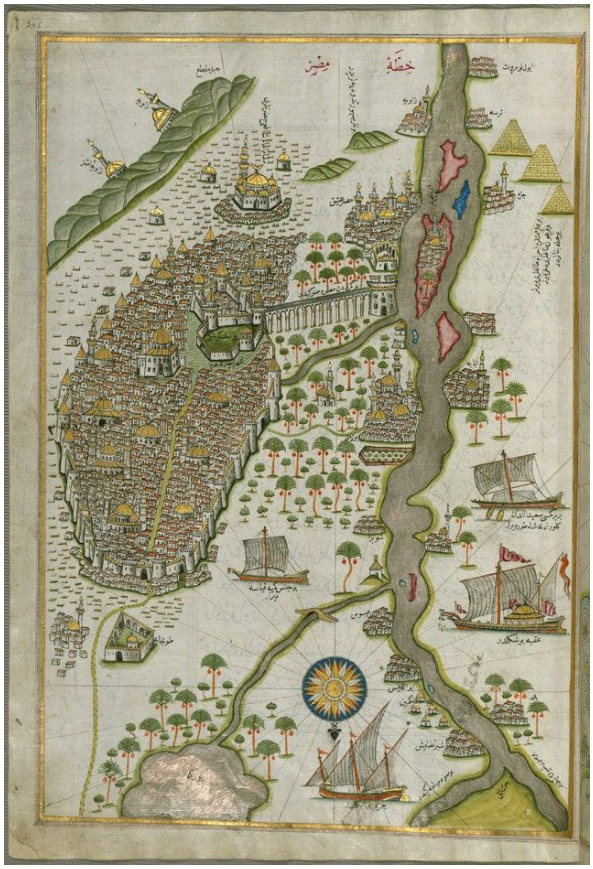

خريطة للقاهرة في القرن ١٦م

وصف القاهرة وعاداتها:

بنصيحة من يوناني، حصل مارتن بومجارتن ورفقته على ملابس مصرية وزنانير وزينة الرأس. وبها أخذوا يذرعون مدينة القاهرة طولا وعرضا أينما أرادوا الذهاب. ويقول مارتن بومجارتن "كان معنا أحد عبيد تغري بردي يرشدنا، بينما نرقب الموقف في المكان ونتنكر في عادات وتقاليد الناس، ونلاحظ ما هو مميز منها" [٤٧].

ويمكن لنا أن نستشف هيئة وشكل ملابس أهل القاهرة التي ارتداها مارتن بومجارتن ورفقته للتخفي والتنقل بحرية، مما وصفه الحسن بن الوزان بأن "لأهل القاهرة هندام حسن. ففي الشتاء يلبسون أقمشة صوفية وبعض الثياب المحشوة بالقطن، أما في الصيف فيلبسون قمصانا طويلة من قماش رقيق وفوقه نوع من ثوب من قماش مصنوع من حرير ومقلم بالألوان أو ثوبا من الحرير ويضعون فوق الرأس عمائم كبيرة من قماش الكريب والمستورد من الهند"[٤٨].

(47) Martin Baumgarten, Op. Cit., p. 442.

(٤٨) الحسن بن الوزان الزياني: المصدر السابق، ص ٥٩١.

أما الإيطالي دومينيكو ترافيزان فقد لاحظ أن موظفي البلاط السلطاني، والمسلمين لا يرتدون الحرير لأن دينهم يمنعهم من ذلك، وهم يرتدون دون استثناء ملابسًا بيضاء وعمامة [٤٩].

سوق الحرير – القاهرة

بريشة الرحالة والرسام الإسكتلندي ديفيد روبرتس David Roberts سنة ١٨٣٩م

وذكر مارتن بومجارتن أن شوارع القاهرة ضيقة جدا ومعظمها مغطى من أعلى بفروع الأشجار والقصب (البوص) [٥٠]. في الوقت الذي حدد فيه أرنولد فون هارف عدد حارات أو شوارع القاهرة بأربع وعشرين ألفا، ولكل منها حارس للمراقبة ليلا خشية الحريق أو الاضطرابات [٥١]. وأكد الإيطالي دومينيكو ترافيزان رواية مارتن بومجارتن بضيق شوارع المدينة، بيد أنه أضاف أن كل عشرين أو ثلاثين منزل مجتمعة، يُغلق عليها بابًا وتُشكل حيا. ولذلك يوجد في القاهرة عددٌ كبيرٌ من الأحياء، غير أن كل حيًا منهم قليل الامتداد. وأضاف أن القاهرة تمتد طولًا لستة أميال بعد آخر ضاحية خارج المدينة، وذلك من باب النصر Beba Nasser. ولا يوجد طريق مباشر بالمدينة سوى من هذا الباب، مرورا بمسجد السلطان حتى باب زويلة Beba Zuelli [٥٢].

(49) Domenico Trevisan, Op. Cit. pp. 212 – 3.

(50) Martin Baumgarten, Op. Cit., pp. 442 – 443.

(51) Arnold von Harff, Op. Cit., p. 109.

(52) Domenico Trevisan, Op. Cit. pp. 213 – 4.

وأورد مارتن بومجارتن في يومياته أن ممفيس تسمى اليوم القاهرة. وهي أعظم مدينة في مصر ومقر ملوكها، وتمتد لمسافة مئة وخمسين فرسخ [٥٣]، وتقع في المكان الأكثر ملائمة في البلد، حيث يتفرع نهر النيل إلى عدة فروع. والمدينة محمية في أحد جوانبها بواسطة أسوار قوية لحمايتها من فيضان النيل[٥٤]، وهجمات الأعداء عليها [٥٥]. ومن جانب آخر تتحول لمدينة منيعة ببحيرة عميقة عظيمة وصناعية مملوءة بمياه النهر الزائدة. ولذلك ولثراء المدينة وموقعها ترك الملوك المتعاقبين طيبة، وجعلوا تلك المدينة مقر امبراطوريتهم وزينوها بالكثير من المباني المميزة وهي لا تزال مدينة ضخمة جدا. ولقد بنوا فيها أربعًا وعشرين ألف مسجد كما أكدوا له، وإن كان لا يعرف صحة أو خطأ ذلك. ولم يتفهم مارتن بومجارتن فكرة النداء والآذان للصلاة خمس مرات يوميا، وهو ما وصفه بقوله "وفوقها يقوم أساقفتها (يعني شيوخها) ليلا ونهارا، وفي ساعات محددة يحدثون ضوضاء بربرية عالية وغريبة" [٥٦].

وبشأن مساجد القاهرة، وأداء المسلمين لصلواتهم، أشار الإيطالي دومينيكو ترافيزان إلى وجود عدد ضخم من المساجد الرائعة بالمدينة، وبعضها من الضخامة بحيث لا يستطيع المرء تقديره. وذكر أن الصلاة تقام فيها خمس مرات في اليوم، كما أورد صيغة الآذان للصلاة، وأن المسلمين بمجرد سماع عبارة "أيها المسلمون المؤمنون حي على الصلاة"، يترك كل منهم ما يشغله، وينطلق للصلاة في أي مكان يجده. وبعد الانتهاء من الصلاة، يقومون برفع أيديهم للسماء، ثم يضعوها على وجوههم [٥٧].

ومهما يكن من أمر، استمر مارتن بومجارتن في وصف القاهرة، فأضاف أنه يوجد في جوانب كنائسها (يعني جوامعها)، وأركان شوارعها، عددٌ ضخمٌ من المواعين (لعله يقصد الأزيار) المملوءة بمياه النيل للشرب منها. وإلى جانبها هناك عددٌ كبيرٌ جدًا من المغاربة الذين يحملون القراب المملوءة بالمياه في الشوارع، ويقدموها مجانا للمارة

---

[٥٣] قال أرنولد فون هارف إن القاهرة مدينة ضخمة للغاية غير مسورة ومكتظة بالسكان وتقع على الضفة اليسرى لنهر النيل، ولها ثلاثة أسماء هي بابليون Babylonia، و Thayr، ومصر Maschera. انظر:

Arnold von Harff, Op. Cit., p. 102.

[٥٤] ذكر أرنولد فون هارف أنه في جزء المدينة المسمى Thyre والذي كان مسورا في الماضي، لا يزال المرء يستطيع مشاهدة بقايا الأسوار القديمة. انظر:

Arnold von Harff, Op. Cit., p. 102.

[٥٥] سجل الإيطالي عوباديا جاريه دا بيرتينورو بدوره أن القاهرة ليست محاطة بشكل كامل بسور، وإنما في بعض مواضع منها هنا وهناك لحمايتها. انظر:

Obadiah Jaré da Bertinoro, Op. Cit., p. 224.

[56] Martin Baumgarten, Op. Cit., pp. 442 – 3.

[57] Domenico Trevisan, Op. Cit., pp. 208 – 9.

الراغبين في شربها دون تمييز في كؤوس فضية. ويستطرد أن عادة الأغنياء جرت في السابق بترك ذلك إرثا (وقفا) بعد وفاتهم، وفي بعض الأحيان كان يقوم بذلك أناس أصحاء في حالة طيبة جدا [٥٨].

وجدير بالذكر أن أرنولد فون هارف أشار بدوره لقيام الأغنياء بإنشاء الأسبلة وسقاية الناس بالمجان في أوعية ضخمة تقربا لله في الكثير من الأماكن والشوارع بالقاهرة، دون تفرقة بينهم على أساس الدين، وما إذا كانوا مسلمين أو مسيحيين أو يهود [٥٩].

وأضاف مارتن بومجارتن أن الأثرياء بالقاهرة، وانطلاقا من ورعهم وتدينهم يشعلون المصابيح والمشاعل كل ليلة، ويصلحون المساجد والمآذن المتهالكة، ويمتدحون الله بطريقتهم ثلاث مرات يوميا، ويملئون الخزانات سابقة الذكر بالمياه، ويرشون الشوارع مرتين يوميا بالمياه لتلطيف الجو واخماد التراب [٦٠].

ومصداقا لقوله، سجل الإيطالي ميشولم بن ميناحيم[٦١] Meshullam Ben Menahem ، أن عدد الرجال المعينين بشكل ثابت لرش الشوارع بالمياه لترطيبها، وتهدئة الأتربة، بعشرة آلاف رجل. وجاء عند أرنولد فون هارف أنه يتم غمر الشوارع بالمياه ثلاث مرات يومية بسبب الحرارة والتراب لأنها ليست معبدة بالأحجار. في الوقت الذي حدد فيه جان ثينو بدوره رش شوارع المدينة بالمياه بمرتين لترطيبها لأنها ترابية وغير معبدة [٦٢].

---

(58)Martin Baumgarten, Op. Cit., p. 442.

(59) Arnold von Harff, Op. Cit., p. 111.

(60) Martin Baumgarten, Op. Cit., p. 442.

(٦١) **ميشولم بن ميناحيم:** وصل الربي الإيطالي ميشولم بن ميناحيم الإسكندرية في سنة ١٤٨١م، قادما من إيطاليا، في رحلة قادته في نهايتها إلى فلسطين. وبعد الإقامة ستة أيام في الإسكندرية فيما بين السادس والثاني عشر من شهر يونيو، تابع رحلته على ضفاف النيل انطلاقا من رشيد في يوم الثالث عشر من يونيو، فوصل للقاهرة في يوم الرابع عشر من يونيو. وكل ما يعرف عنه من خلال ماورد في روايته أنه من أسرة ثرية عاشت في مدينة فلورنسا في القرن الخامس عشر الميلادي، وكان والده يمتلك أكثر من مئة ألف دوكات Ducat، وضيعة على أقل تقدير. ولقد نشرت ذكريات ميشولم عن تلك الرحلة لأول مرة في فيينا سنة ١٨٨٢م، وذلك نقلا عن مخطوطة فلورنسية وحيدة، وأعاد إليكان ناثان أدلر Elkan Nathan Adler نشرها بالإنجليزية. انظر:

Meshullam Ben R. Menahem, The Travel of Rabbie Meshullam Ben R. Menahem of Volterra, in. Jewish Travellers, edited, with an introduction, by Elkan Nathan Adler, London, 1930, pp. 156, 157, 163, 172.

(62) Meshullam Ben R. Menahem, Op. Cit., p. 168; Arnold von Harff, Op. Cit., p. 111; Jean Thenaud, Op. Cit., p. 47.

وواصل مارتن بومجارتن تعليقه عن مهنة السقاية في القاهرة، فأورد أنهم يقولون وهو ما يبدو من وجهة نظره غير مستحيل، أن ما يزيد عن ثمانية آلاف يتكسبون عيشهم من حمل المياه، بعضهم لديهم جمل، وآخرين جملين وبعضهم خمسة جمال للقيام بذلك العمل [٦٣].

وعدد ميشولم بن ميناحيم سنة ١٤٨١م عدد الذين يحملون مياه النيل، في القاهرة ويضعونها في صهاريج لبيعها لمن يطلبها في أي وقت مقابل قطعة نقدية بأربعة آلاف، ووصفها بأنها أحلى من العسل لأنها من جنات عدن. وقدر أرنولد فون هارف سنة ١٤٩٧م، هؤلاء السقاة بحوالي عشرة آلاف رجل كانوا يحملون المياه على ظهورهم طوال ساعات النهار في قرب من جلد الماعز، ويبيعونها في آنية صغيرة مقابل قطعة نقد نحاسية لكل، وبذلك كان الناس يغتسلون من الحرارة الشديدة. وحدد عدد الجمال التي تقوم بنقل المياه كل يوم من النيل للمدينة على جانبيها في قرب من جلد الماعز بعشرين ألفا. أما الفرنسي جان ثينو فقد قدر هؤلاء السقاة في القاهرة سنة ١٥١٢م بمئة ألف، والجمال التي تحمل المياه لبيعها وتوزيعها في شوارع القاهرة بخمسين ألف. وفي نفس العام الأخير قدر الإيطالي دومينيكو ترافيزان عدد الجمال التي تحمل مياه النيل للقاهرة مرتين يوميا لكي يشرب أهلها بخمسة عشر ألفا، مقابل أربع قطع نحاسية (sou) [٦٤] للحمل الواحد، فضلا عن استخدامهم لمياه الآبار [٦٥].

ولاحظ مارتن بومجارتن أن شوارع القاهرة ضيقة جدا، ومغطاة في جزئها الأكبر بأغصان الأشجار والبوص. وغالبية منازلها مبنية بالطوب الممزوج بالقش المجفف بحرارة الشمس لجعله صلبا، والكثير منها مبني ومغطى بالقصب والبوص. وذهب إلى أنها لا تقارن بالكلية بمنازلهم (يعني في ألمانيا والنمسا)، غير أنه برغم ذلك يصف بيوت الرجال العظام بالقاهرة بالجميلة والرائعة [٦٦].

---

(63) Martin Baumgarten, Op. Cit., p. 442.

(٦٤) **السو**: sou وجمعها sous، عملة فرنسية نحاسية.

(65) Arnold von Harff, Op. Cit., p. 111; Jean Thenaud, Op. Cit., p. 47; Domenico Trevisan, Op. Cit., p. 213.

(66) Martin Baumgarten, Op. Cit., p. 443.

Source gallica.bnf.fr / Bibliothèque nationale de France

خريطة للقاهرة في القرن ١٦م نقلا عن André Thevet

وكان الإيطالي ميشولم بن ميناحيم قد سبقه بدوره في وصف شوارع وحارات القاهرة بالمظلمة، والقصيرة والضيقة أكثر من حارات البندقية، وبأن بعضها مغطى بسعف النخيل بسبب الحرارة الشديدة والمريعة، لأنه دونها تستحيل الحياة. وتقابل فيها قمم البيوت بعضها البعض، ولا يوجد في المدينة أي منزل في حطام بالنظر لضخامتها إذ يصل محيطها لثمانين ميلا. وعقب أنه برغم ضيق وظلمة طرقها، إلا أن منازلها تحتوي فسيفساء رائعة، وبأن معظم سكان المدينة يعيشون في منازل ذات طابق أرضي فقط [٦٧].

وحري بالقول إن الإيطالي دومينيكو ترافيزان ذكر سنة ١٥١٢م أنه ولأمور أمنية، كان يتم وضع مصباح منير على واحد من المنازل من بين كل مجموعة منازل مكونة من أربعة أو خمسة. وفصل أن غالبية منازل المدينة لها حائط خارجي مقام بدعائم خشبية، وبوص مغطى بالطين، مما يعطيها مظهرًا بائسًا للغاية. وأكد أنه يوجد تقريبا

(67) Meshullam Ben R. Menahem, Op. Cit., pp. 167 – 8, 170.

في القاهرة ثلاثمائة منزل فقط مبنية بالحجر، ومزينة في الداخل بالنحت والتذهيب، وحليات العاج والأبنوس، وأرضيتها مغطاة بالفسيفساء باهظة الثمن [٦٨].

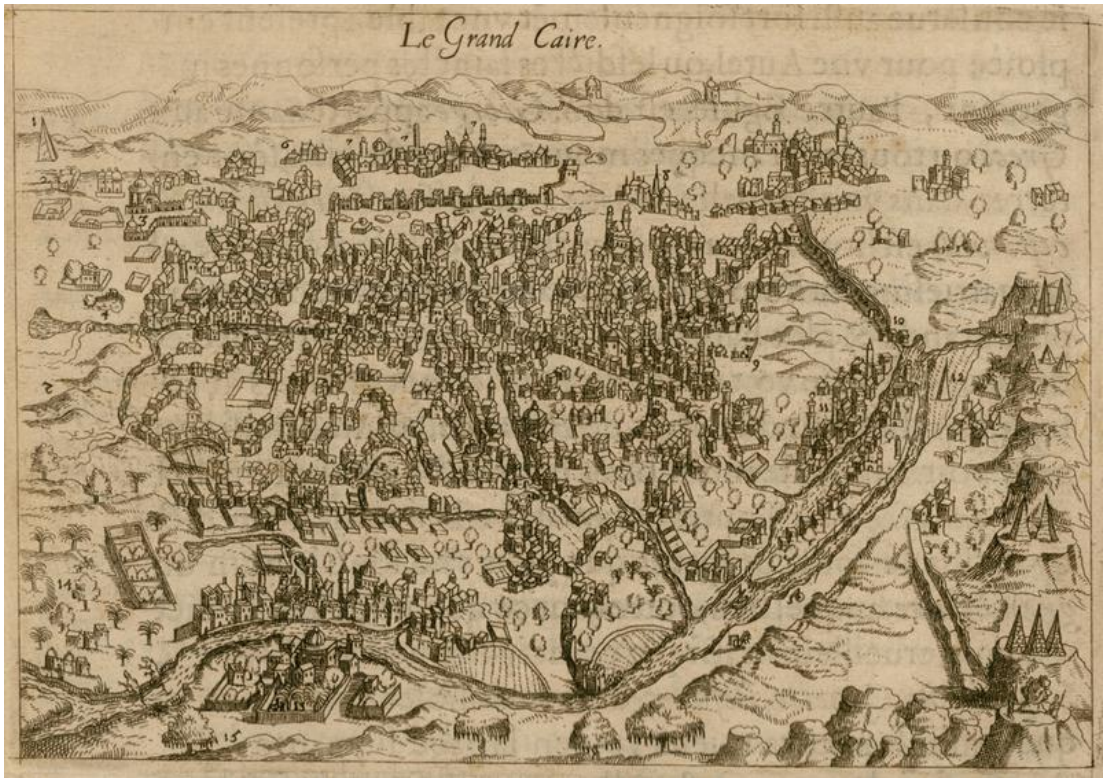

خريطة هنري دو بوفو Henri de Beauvau للقاهرة سنة ١٦١٥م [٦٩]

وأشار مارتن بومجارتن إلى أن مدينة القاهرة ضخمة جدا، لدرجة أن المرء يستطيع بالكاد السير حولها في تسع أو عشر ساعات. وأنه يوجد في جزئها الأعلى قلعة السلطان، وهي ضخمة وقوية، ويمكن الدخول إليها عبر اثنتا عشرة بوابة حديدية كلها محمية بالمدافع (البنادق) والحراس. ولكن واحدة منهم تتوسطها تماما لا يوجد بها أحد، وتفتح وتغلق بمفاتيح خشبية [٧٠].

وليس أدل على قول مارتن بومجارتن بضخامة القاهرة من قسم الإيطالي ميشولم بن ميناحيم بأنه لو كان ممكنا وضع مدن روما، وميلانو، وبادوا Padua، وفلورنسا Florence، وأربعة مدن أخرى معا، فلن يشكلوا مجتمعين نصف ثراء وسكان مصر. بينما سجل عوباديا جاريه دا بيرتينورو أنه لن يتحدث عن تلك الضخامة، وعن

(68) Domenico Trevisan, Op. Cit., p. 211

(69) Henry de Beauvau, Relation lournalière du Voyage du Levant, Nancy, 1615.

(70) Martin Baumgarten, Op. Cit., p. 443.

كثافة أعداد سكانها، لأن الكثير ممن سبقوه فعلوا ذلك، وكل ما قالوه عن المدينة كان صحيحا. والمدينة مفعمة بالحيوية، ويستطيع المرء سماع لغات مختلفة للأجانب الذين يعيشون فيها [٧١]. في حين ذكر الإيطالي دومينيكو ترافيزان أن مساحة القاهرة ضعف مساحة مدينة بادوا Padou، وطولها أكبر من عرضها، ومساحتها مغطاة كاملة بالمنازل. ولكن في ضاحيتين منها يوجد الكثير من الأماكن المليئة بالحطام وغير المسكونة. وللقاهرة خمسة أرباض، أحدها القاهرة القديمة التي تبعد عن القاهرة بنصف ميل، لا تقوم فيه أية مباني.

وأكد أرنولد فون هارف عدد بوابات قلعة القاهرة التي ذكرها مارتن بومجارتن، فقد ذكر أنه يجب المرور باثنتا عشرة بوابة للولوج إلى القصر السلطاني بالقلعة [٧٢].

قلعة القاهرة

بريشة الرحالة والرسام الإسكتلندي ديفيد روبرتس David Roberts سنة ١٨٣٩م

وبخصوص القلعة، ذكر السفير البندقي دومينيكو ترافيزان أنها ليست قوية للغاية، ولها سور يمتد لثلاثة أميال، وهي مقامة فوق ربوة مكونة من الصخور تتحكم في كل المدينة. وداخلها يوجد مقر جميل ولطيف جدا

(71) Meshullam Ben R. Menahem, Op. Cit., p. 166; Obadiah Jaré da Bertinoro, Op. Cit., p. 224.

(72) Arnold von Harff, Op. Cit., pp. 107 – 8.

للسلطان. ولا يوجد مكان آخر محصن في المدينة. وعلق أن مثل هذه القلعة لا تحمل عندهم في إيطاليا اسم قلعة، وإنما يطلق عليها قصر عظيم [٧٣].

ويتابع مارتن بومجارتن بشأن المدينة نفسها أنها مقسومة لجزئين، أحدهما يسمى القاهرة. والأخرى بابليون التي بناها البابليون من العراق الذين حصلوا على أرضها من الملك، ولأجل تذكر بلدهم أطلقوا عليها اسم بابليون التي كانت قديما مقرا لملوكهم [٧٤]. وكان الإيطالي ميشولم بن ميناحيم قد أورد قبل ربع قرن من الزمان قبل زيارة مارتن بومجارتن للقاهرة، أن مصر القديمة التي تسمى بابليون Babozinia، كلها في دمار، ويعيش بها القليل من الناس، وبها معبد للنبي إلياهو Elijah[٧٥].

يهود القاهرة:

وفيما يختص بسكان القاهرة ذكر مارتن بومجارتن، أن هناك رواية تجري لم يتحقق من صحتها بوجود عدد كبير منهم من المشردين ليست لديهم بيوت، ويمضون ليلتهم في العراء، أكثر من عدد سكان البندقية. في حين يبلغ عدد سكانها من اليهود نحو خمسة عشر ألف يهوديا [٧٦].

وقدر الإيطالي دومينيكو ترافيزان عدد سكان القاهرة سنة ١٥١٢م، بحوالي مليون ونصف إنسان، ونصف هؤلاء من العامة والفقراء [٧٧]. ومن الجدير بالملاحظة أن أعداد يهود القاهرة كما أوردها مارتن بومجارتن كان بها نوعا من التضخيم. فقد ذكر الربي الإيطالي ميشولم بن ميناحيم أن عدد يهود القاهرة سنة ١٤٨١م، تكون من ثمانمائة أسرة من اليهود الربانيين، ومثلهم من اليهود القرائين، وخمسين أسرة من اليهود السامرة، وكان كل منهم يعيش في حي خاص به. وفي حين كان للقرائين معبدهم، كان للسامرة معبدين، وللربانيين ستة معابد. وكان السلطان يختار من بينهم ناجد Nagid ليرأسهم ويدير شؤونهم [٧٨]. وهو ما يعني أنهم كانوا يزيدون قليلا عن ثمانية آلاف، على اعتبار أن اليهود كانوا قليلي الإنجاب وكان متوسط الأسرة الواحدة خمسة أفراد [٧٩]. في الوقت الذي قدرهم الإيطالي

---

(73) Domenico Trevisan, Op. Cit., p. 208.

(74) Martin Baumgarten, Op. Cit., p. 443.

(75) Meshullam Ben R. Menahem, Op. Cit., p. 167.

(76) Martin Baumgarten, Op. Cit., p. 442.

(77) Domenico Trevisan, Op. Cit., p. 208.

(78) Meshullam Ben R. Menahem, Op. Cit., pp. 171 – 2.

(٧٩) عن مذاهب اليهود وقلة انجابهم، راجع بحثنا بعنوان: إبراهيم سعيد فهيم محمود (دكتور): يهود فلسطين في العصر المملوكي في ضوء مؤلفات الرحالة اليهود والمسيحيين الأوروبيين، بحث منشور ضمن أبحاث المؤتمر الدولي بعنوان "فلسطين

عوباديا جاريه دا بيرتينورو سنة ١٤٨٧م، بسبعمائة أسرة، أي حوالي ثلاثة آلاف وخمسة وفق متوسط إنجابهم كما أوضحنا، منهم خمسين أسرة من اليهود السامرة، ومئة وخمسين أسرة من اليهود القرائين، والبقية من اليهود الربانيين. كما كان يوجد بالقاهرة خمسين أسرة يهودية ممن تم طردهم من إسبانيا، وجاؤوا للقاهرة بحثا عن ملجأ. وأضاف أن اليهود السامرة هم الأكثر ثراء من بين يهود القاهرة، ومنهم الصيارفة والإداريين. وأنه يقال إن أحدهم يمتلك مئتي ألف قطعة ذهبية، وبرغم ذلك فإن اليهود يتظاهرون بالفقر في البلدان العربية، ويتسولون الناس (٨٠).

في حين سجل أرنولد فون هارف سنة ١٤٩٧م، في روايته أعداد اليهود في القاهرة بعشرة آلاف، كان على كل فرد منهم دفع ثلاث دوكات ذهبية سنويا للسلطان. وأضاف أن لكل طائفة يهودية شارعها الخاص في المدينة الذي كان يغلق عليهم ليلا. وأنه من بين اليهود كان يوجد عدد من الأثرياء يملك الواحد منهم حوالي ثلاثين ألف أو أربعين ألف دوكات، وأنه كان يتم تمييز اليهود من مظهرهم فقد كانوا يرتدون عمامة صفراء ملفوفة حول رؤوسهم. أما جان ثينو فقد أورد سنة ١٥١٢م، عدداً مقاربا لما ذكره أرنولد فون هارف ليهود القاهرة إذ حددهم بدوره بأنهم أكثر من عشرة آلاف يهودي لهم شوارعهم ومعابدهم وأسواقهم داخل المدينة (٨١).

السلطان قانصوه الغوري ومماليكه وعروضهم في الميدان، وضيوف العرض:

تميزت مشاهدات مارتن بومجارتن في القاهرة بوصف فريد لاستعراض عسكري وسباقات وألعاب وتدريبات فروسية للمماليك زمن قانصوه الغوري. إذ أنه في الثاني من أكتوبر، وقبل شروق الشمس وتجنبا للحشد، ذهب ورفقته ومعهم عبد مملوك لتغري بردي لإرشادهم إلى قصر السلطان. وهناك شاهدوا حوالي ستين ألف مملوكي يقفون في خضوع وصمت عميق، يرتدون جميعا زيا أبيضا مماثلا بنفس النمط. ولقد أمكن لهم رؤية السلطان نفسه في حصن الغرفة الصيفية المزودة بنوافذ شبكية، مرتديا وفق قوله عمامة مدببة على رأسه، وأثواب شديدة البياض، وكانت لحيته سوداء طويلة وكثيفة. وإلى جواره كان يجلس الخليفة بنفس الطلعة والكمال، ولكن بدرجة أقل، وكان مميزا بعمامته، وكان يليه سفير تركي(٨٢).

في ضوء البردي والنقوش"، مركز الدراسات البردية والنقوش، جامعة عين شمس، القاهرة، ٢٠٠٠م، وأعيد نشره في بحوث كتاب بعنوان: إبراهيم سعيد فهيم محمود (دكتور): دراسات في تاريخ العصور الوسطى وحضارتها، الإسكندرية (دار المعرفة الجامعية)، ٢٠٠٦م، ص ٢٠٧، ٢٤٥ . ٢٤٧.

(80) Obadiah Jaré da Bertinoro, Op. Cit., pp. 225-6.

(81) Arnold von Harff, Op. Cit., p. 113; Jean Thenaud, Op. Cit., p. 51.

(82) Martin Baumgarten, Op. Cit., pp. 443 – 4.

وأكد ابن اياس أمر هذا السفير الذي أشار إليه مارتن بومجارتن حين ذكر في شهر جمادى الأولى سنة ٩١٣هـ (سبتمبر سنة ١٥٠٧م) " وفي تاسع عشره حضر إلى الأبواب الشريفة شخص يقال له كمال من خواص جماعة ابن عثمان، وقد ترجموا هذا كمال بتراجم عظيمة بأنه لا يكل ولا يمل من الجهاد في الفرنج ليلا ونهارا حتى أعتى الفرنج أمره، وإنه رأس المجاهدين المرابطين في الإسلام، فلما حضر أكرمه السلطان وبالغ في إكرامه وأخلع عليه، فأقام بمصر مدة يسيرة ورجع إلى بلاده" [٨٣].

مدخل قلعة القاهرة

بريشة الرحالة والرسام الإسكتلندي ديفيد روبرتس David Roberts سنة ١٨٣٩م

ومن المؤكد أن هذا السفير وسفارته قد أقاموا في القاهرة ما يزيد عن الشهر، مما أتاح له رؤية العرض العسكري الذي أشار مارتن بومجارتن، فقد تابع ابن إياس إنه وفي جمادى الآخرة سنة ٩١٣ هـ (أكتوبر١٥٠٧م)، أي في نفس التوقيت الذي حدده مارتن بومجارتن "وفي يوم الإثنين حادي عشره أخلع السلطان على قاصد أبي يزيد بن عثمان خلعة سنية، وألبس جماعته سلاريات وشهقا وصمورا وأذن لهم بالعودة إلى بلادهم. فمضوا وهم شاكرون من السلطان" [٨٤].

[٨٣] ابن إياس: المصدر السابق، ج ٤، ص ١١٩.

[٨٤] نفسه: المصدر السابق، ج ٤، ص ١٢٢.

وأيا كان الأمر، فقد وصف لنا مارتن بومجارتن تفاصيل الميدان الذي عين لهؤلاء الذين يتبارون في تلك الألعاب والرياضات، بقوله إنه وعلى جانب القلعة وُجد ميدان واسع ومنبسط، أُعد قبلا لهذا الغرض. وفي وسط الميدان في أحد جوانبه كان هناك ثلاث روابي صناعية من الرمال، كل منها على مبعدة خمسين خطوة من الأخرى. وعلى قمة كل منها ثُبتت حربة تحمل علامة بأن رماة السهام يصوبون عليها، وكان الأمر ذاته في الجانب الاخر. وفي المنتصف بينهم تُركت مساحة تسمح بركوض ستة أحصنة جنبا إلى جنب. واصطفت في الميدان أعداد ضخمة جدا من الشباب الذين يرتدون الحرير، المطرز بثراء، ومعهم أسلحتهم الخفيفة وهم فوق صهوة جيادهم. ومن ثم بدأوا ألعابهم بالطرق التالية وفق ما شاهده مارتن بومجارتن خلال ذلك اليوم [٨٥].

ففيما يتصل بمهارات التصويب بالسهام بدأ المتنافسون نشاطهم بالركض بخيولهم بكل سرعة بين أول رابيتين من الروابي الصناعية. وصوبوا بكل براعة سهامهم على العلامات المثبتة فوق الرماح على أيمانهم وشمائلهم، وتلي ذلك ركضهم بنفس الطريقة بين الرابيتين الأخرتين وملئوا العلامات بسهامهم. ومن ثم ركضوا بنفس السرعة خلال الروابي المتبقية، وصوبوا سهامهم بكل فن، بحيث لم تفقد أي منها هدفها.

وبعد أن أنجز هؤلاء الشباب أدوارهم، ولمس جميع العلامات، أمسك كل منهم حربته الصغيرة المعلقة خلف ظهره- كما لو كانوا ينوون القتال عن قرب يدا بيد- وتراجعوا قليلا خارج الطريق، إلى أن قام بقيتهم بأداء مماثل لما فعلوه. وبعد قيامهم جميعا بذلك، وبذات النظام الذي بدأوا به، ساروا، ولكن بسرعة أبطأ بنفس الطريقة وهم راكبون، وأمامهم راياتهم، كما لو كانوا منتصرين، حتى وصلوا للمكان الذي انطلقوا منه. وبعد إعداد أنفسهم لنوع آخر من التدريبات كانوا يخرجون ثانية في وقت قصير.

وبكلمات مارتن بومجارتن، كان بعضهم وبينما هم يركبون خيولا تجري بلجام محلول، يصوبون سهامهم من أعلى وأسفل على العلامات من الأمام والخلف، البعض منهم مرة، وآخرين مرتين، والبعض الثالث ثلاث مرات.

في الوقت الذي كان فيه فرسان آخرون، وخيولهم تعدو بأقصى سرعة يقفزون منها لأسفل ثلاث مرات أثناء عدوها، ثم يصعدون عليها ثانية، وهم يرمون سهامهم في نفس الوقت دون أن يفقد أيا منها أبدا [٨٦].

بينما كان آخرون لا يجلسون على سروجهم، وإنما كانوا يظلون واقفين، ويصيبون العلامة بالضبط بينما خيولهم تعدو وكأنها تطير.

(85) Martin Baumgarten, Op. Cit., p. 444.

(86) Ibid., Op. Cit., Loc. Cit.

وقام آخرون ولثلاث مرات وبأقواس مستقيمة، بإطلاق السهام من رؤوسها كالسوط، بينما خيولهم تعدو بأقصى سرعة، ويفعلون ذلك مرة ثانية وأقواسهم محنية، دون أن يفقدوا العلامة الهدف.

في حين كان فرسان آخرون، يقفزون من على خيولهم وهي تعدو بأقصى سرعة، أحيانا من جانب، وأحيانا من الجانب الآخر، وهم يصوبون أكثر من الآخرين.

وكان فرسان آخرون، يرمون بأنفسهم من فوق خيولهم للخلف، ثم يقفزون ثانية فوق السرج والخيول تجري بأسرع ما تستطيع، في وقت كانوا يطلقون فيه سهامهم ويصيبون الهدف في كثير من الأحيان كلما صوبوا.

وكانت مجموعة أخرى من الفرسان يقفزون من فوق السروج المربوطة بالخيول وهي تعدو بكل سرعة، ثم كانوا يحلون السروج ويصوبون ثلاث مرات، فيثقبون العلامة في كثير من الأحيان، ثم كانوا يعلقون بسروجهم.

وآخرون، كانوا يجلسون وفقا لطريقتهم المعتادة، ثم يقفزون خلف سروجهم ويجعلون رؤوسهم معلقة للأسفل، ثم يرفعون أنفسهم للأعلى فوق سروجهم، ويفعلون ذلك ثلاث مرات وهم يصوبون سهامهم التي لا تخطأ أبدا علامة التصويب.

فضلا عن قيام آخرون وهم جالسون على سروجهم، بإمالة رؤوسهم للخلف والنوم على أرداف خيولهم ووضع ذيولها بين أسنانهم، ثم كانوا يرفعون أنفسهم لأعلى ويصوبون كما لم يفعلوا من قبل. وآخرون وبعد كل تصويب لسهمٍ، كانوا يغمدون سيوفهم ثم يرفعوها عالية وهم يلوحون بها أمام رؤوسهم.

وكان آخرون يجلسون بين سيوف حادة مسنونة، ثلاثة منهم في كل جانب، وهم مرتدون ملابسًا رقيقة للغاية. وفي حال لو تزحزحوا ولو قليلا كانوا سيجرحون. ولكنهم كانوا يتحركون ببراعة للأمام وللخلف، كما لو لم يكن هناك أي خطر. وكانوا متأكدين دائما من خرق العلامة.

ويشير مارتن بومجارتن أنه ومن بين كل الشباب الذين يؤدون تلك الفنون القتالية، كان يوجد واحداً باستطاعته الوقوف بقدمين حرتين على ظهر جوادين من أسرع الخيول المنطلقة بكل سرعة، وتصويب ثلاثة سهام للأمام والخلف (٨٧).

وكان هناك فارس آخر يستطيع الجلوس على الحصان دون سرج أو لجام، ويقف على قدميه أمام كل علامة تصويب، ليصيب علامة التصويب بيده اليمنى، ثم بيده اليسرى. وبعدها كان يجلس على الحصان، ويكرر ذلك مع

(87) Ibid., Op. Cit., Loc. Cit.

كل من علامة التصويب الثانية والثالثة، وعبر مارتن بومجارتن عن اندهاشه مما يشاهده بقوله: "هكذا اكتشفنا رشاقة لا تصدق ومهارة في التصويب".

كما وُجد آخر، وكان الوحيد من بينهم يستطيع وهو ممتطيا ظهر جواد مجرد من أي شيء، الجلوس بظهره وتمديد قدميه عالية في الهواء، وبمجرد اقترابه من العلامات ينطلق على قدميه في لحظة ليثبت سهمه في علامة التصويب.

وفي النهاية، وعندما كانت علامات التصويب تمتلئ تقريبا بالسهام، كان سيد هؤلاء الشباب، وهو رجلا مسنا رمادي الشعر، يمسك بالعلامات بيده، ويحملها لأعلى ما يستطيع ثم يلقيها على الأرض. وعليها، كان تلاميذه ينهالون برماحهم وسهامهم، كما لو كانوا يضعون نهاية لحياة أعدائهم المجروحين، ثم يقفزون بعدها لأعلى ولأسفل بطريقة المنتصر. ووضع بقية الفرسان نهاية لتلك الألعاب، حين أمسكوا رماحهم بأيديهم، ووضعوا المهاميز في خيولهم، وقادوها حتى علامات التصويب المتبقية، وخرقوها برماحهم، وحملوها عاليا على أسنتها كما لو أنها تذكار الانتصار.

وليس أدل على براعة الفرسان المماليك يومها من ثناء مارتن بومجارتن على المتبارين بقوله "ويجدر بأي إنسان مشاهدة هؤلاء الشباب الطوال حسني الملبس والتسليح مع تدريباتهم الجميلة التي يقومون بها على ظهر الخيول المنطلقة بكل سرعة، في وقت يقف فيه الآخرين بصعوبة على الأرض الثابتة، وكان هذا أمراً عجيباً لمن يراه وعصيا على التصديق".

ومع ذلك لم تكن مثل تلك العروض تخلوا من الخسائر، إذ سجل مارتن بومجارتن أنه ومن بين هؤلاء الشباب المتبارين، توفي ثلاثة نتيجة لجسارتهم الحمقاء إثر سقوطهم من فوق خيولهم. حيث لفظ أحدهم الروح بمجرد سقوطه، وحُمل في الحال ودُفن خشية أن تؤدي جنازة رسمية له لاضطراب البقية. أما الاثنان الآخران فقد توفيا تقريبا، وحُملا كذلك خشية إفساد العرض.

وبعد انتهاء عروض الرماية جُلبت آلة تمثل فيل، على ظهره برج خشبي مملوء برجال يشعلون بعض القطع باستمرار، ويرمون سهامًا مشتعلة، كما كانوا ينضمون للشباب الذين ترك معظمهم أحصنته، وسلح نفسه كالمشاة. وفي نفس الوقت كانت هناك في أحد الأماكن قلعة خشبية مركبة مزينة بالرايات والشارات، ويتم الدفاع عنها بعدد جيد من الجنود بداخلها. وجري الأمر بمحاولة الشباب مع الذين كانوا على ظهر الفيل القيام بمهاجمة القلعة مرات عديدة. ولكنهم كانوا دائما ما يُدفعوا للخلف، مما يضطرهم للهروب. وفي النهاية تابعتهم الحامية وطاردتهم بعيدا جدا عن القلعة، ثم كان من يقومون بدور الأعداء يتحولون ضدهم، ويتابعوهم حتى بوابة القلعة. وبتكرار ذلك مرات عديدة،

نجحت حامية الفيل في التغلب على حامية القلعة التي لعبت دور العدو وأوقعوهم أسرى، ووضعوا حامية صغيرة منهم على القلعة.

تبادل الفريقان بعد ذلك الأدوار، فقد لعب جنود القلعة دور العدو، وأخذوا يصوبون السهام المشتعلة دون تمييز لهؤلاء الذين يقفون بالقرب منهم، بحيث وكما ذكر مارتن بومجارتن: "لم يعد أحد آمنا وبخاصة نحن، في حين وضع المسلمين درعا لحماية أنفسهم، وأصبحنا نحن مكشوفين وتعرضنا لخطر عظيم".

وبعد انتهاء العرض سار الشباب نحو السلطان بأقواسهم مستقيمة، بهيئة خاضعة ورؤوس مطأطأة نحو الأرض. ثم ذهبوا وامتطوا صهوة جيادهم، التي بقيت هادئة خلال تلك الفترة على مسافة قريبة، والتي كانت تبدو وكما وصف مارتن بومجارتن كما لو أنها تظهر إجلالًا عميقًا للسلطان [٨٨].

والواقع أن مشاهدة مارتن بومجارتن ورفقته لهذه العروض لم تخل من المخاطرة، كذلك تُظهر روايته أنه لم يسجل جميع ما شاهده في هذا العرض العسكري. إذ اختتم وصفه لها بقوله "وبعد انتهاء كل هذه الاستعراضات والعروض، وقيام السلطان بمكافأة المستعرضين كان يعودون جميعهم من حيث أتوا في البداية مسلحين، فكان كل منهم يعود لمنزله، وسعينا نحن لنفعل المثل. ولقد قُبض علينا بواسطة من يسيطر على بوابة قلعة السلطان، ولو لم يتشفع لنا بجدية المملوك الذي كان مرشدنا، كنا سنجبر لدفع مبلغ معتبر من المال، وبفعل ذلك هربنا من قبضتهم. ولقد كافحنا بصعوبة شديدة خلال الازدحام حتى عودتنا لمكان إقامتنا. كما بدأنا مقارنة الملاحظات حول ما شهدناه، وكتابة ما ظننا أنه الأجدر بالملاحظة" [٨٩].

وجدير بالذكر أن ابن إياس أورد إجمالا وفي أكثر من مناسبة اهتمام السلطان قانصوه الغوري بهذا النوع من الرياضيات والمهارات العسكرية. غير أن مارتن بومجارتن تميز عليه بما أورده في روايته من تفصيلات دقيقة لم ترد عند غيره من الرحالة المعصرين، أو مصدرا معاصرا للغوري وهو ابن إياس. ففي أحداث شهر شوال سنة ٩١٤هـ (١٥٠٨م) أورد ابن إياس أنه وفي رابع شوال نزل السلطان إلى الميدان وجلس بالمقعد الذي به واجتمع حوله الأمراء، " ثم بعد أيام عزم السلطان على القاصد (يعني قاصد صاحب بغداد) بالميدان وأحضر قدامه جماعة من المماليك وهم لابسون آلة السلاح، فأرموا في ذلك اليوم رماية نشاب على الخيول وأظهروا أنواعا غريبة في فن النشاب أدهشوا ذلك القاصد، وأحرق السلطان في ذلك اليوم احراقة نفط بالنهار في الميدان، وقد فعل مثل ذلك مرتين بحضرة القاصد وهو بالميدان" [٩٠]. وفي أحداث شهر المحرم سنة ٩١٥هـ (١٥٠٩م)، يقول "وفيه نزل السلطان إلى الميدان وأحضر

---

(88) Ibid., Op. Cit., p. ٤٤٥.

(89) Ibid., Op. Cit., pp. 445 – 6.

(٩٠) ابن إياس: المصدر السابق، ج ٤، ص ١٤٥.

جماعة من المماليك يرمون بالنشاب على الخيل وهم بآلة السلاح، وأحرق في ذلك اليوم إحراقة نفط بالنهار، وكان له يوم مشهود" [٩١]. وأضاف في شهر شعبان من نفس العام "كان قدام السلطان رماية نشاب على الخيل، وأحرق قدامه في ذلك اليوم إحراقة نفط بالميدان بالنهار" [٩٢].

تجديد قانصوه الغوري للقصر السلطاني الكبير:

وما دمنا في إطار ما أورده مارتن بومجارتن عن قانصوه الغوري، فمما يذكر، ما سجله من أن رخام كنيسة بيت لحم من أجمل وأندر الأنواع لدرجة لا يمكن تخيل وجود ما هو أجمل منه، أو أن هناك سعر يعادله، وكان جماله ولمعانه لا يقل عن أفضل أنواع المرايا اللامعة. ومنذ بعض سنوات مضت أعجب السلطان برقة الرخام، لدرجة أنه حمل كميات كبيرة منه إلى القاهرة ليزين بها قصره [٩٣].

ولعل الرواية التي دونها ابن إياس ضمن أحداث سنة ٩١٣هـ/ ١٥٠٧م وجاء فيها " وفي رجب كان انتهاء العمل مما جدده السلطان من العمارة بالقصر الكبير، فلما تم ذلك صنع به وليمة حافلة وعزم على القضاة الأربعة والأمراء المقدمين وأرباب الوظائف من المباشرين، وأحضر قراء البلد قاطبة والوعاظ ومد به أسمطة حافلة وبات تلك الليلة هناك" [٩٤]، تؤكد ما ذهب إليه مارتن بومجارتن بهذا الأمر.

كذلك أورد الحسن بن الوزان ما قد يتصل بأمر هذا الرخام والقصر السلطاني "وفي خارج القاهرة، تقع قلعة السلطان بجانب ربض باب زويلة، وقد شيدت على نتوء من جبل المقطم. وهذه القلعة محاطة بأسوار عالية ومتينة. وهي مطوقة بقصور عجيبة تعجز الكلمات عن وصفها، ومبلطة بأنواع من الرخام المتعدد الألوان، ومجموع بعضها إلى بعض بشكل مدهش. وقد كسيت السقوف بالذهب وأزهى الألوان. فالنوافذ مزدانة بزجاج ملون، كالتي يرى منها في بعض أنحاء أوربا. ونجارة الأبواب منقوشة بفن رفيع ومغطاة بالرسوم والتذهيبات. وكانت هذه القصور مخصصة سواء لأسرة السلطان ذاته، أو لنسائه، او لمحظياته، او لخصيانه، أو لحرسه، وكان البعض منها مخصصا لولائم السلطان الرسمية أو لاستقبال السفراء، وحيث تقام احتفالات الأفراح الكبرى. وكانت هناك قصور أخرى مخصصة للموظفين المكلفين بإدارة البلاط. ولكن كل ذلك اختفى الآن. فقد ألغى السلطان سليم كل ذلك" [٩٥].

---

[٩١] نفسه: المصدر السابق، ج ٤، ص ١٥١.

[٩٢] نفسه: المصدر السابق، ج ٤، ص ١٦٤.

[93] Martin Baumgarten, Op. Cit., p. 460.

[٩٤] ابن إياس: المصدر السابق، ج ٤، ص ١٢٣.

[٩٥] الحسن بن الوزان الزياني: المصدر السابق، ص ٥٩٠ – ٥٩١.

ألقاب السلطان قانصوه الغوري:

واستمرارا لحديث مارتن بومجارتن عن قانصوه الغوري، تجب الإشارة إلى أنه سجل لنا في مصنفه وفق قوله الألقاب التي يظنها السلطان قانصوه الغوري عن نفسه، والتي ذكر أنه استطاع رؤيتها بشكل كامل من خطاباته إلى زعيم البنادقة، التي أظهرها له قنصل البنادقة في طرابلس الشرق. وفيها أغدق على نفسه الألقاب التالية: السلطان، الحاكم ذو السيادة العظمى، قنصوة الغوري Elnelekelezerapb ، العظيم، الرائع، النبيل، الحكيم، المحارب، الحامي الدائم للبلاد، المنتصر بمساعدة من الله، ملك الملوك، سيف الدنيا والدين، سلطان وأمير الدين المحمدي (الإسلامي) والمحمديين (المسلمين)، مجدد العدالة في كل العالم، والذي يمتلك بحق الإرث ممالكه. سلطان العرب والفرس والأتراك، ظل الله على الأرض، مراقب وصايا الله والرسل، وهو في زمنه الإسكندر الثاني، والذي يتقدم عليه في أشياء منها حاكم جميع من يجلسون في المحاكم وعلى العروش والرؤوس المتوجة، حاكم الأجواء والدول، مضطهد المتمردين الكفار والمهرطقين والوثنيين؛ حامي مكاني الحج. الكاهن (الرئيس) الأكبر للمعبدين (الحرمين) المقدسين؛ جامع وحافظ كلمات الله؛ المدافع عن المحتاج بعدالة، والمزود لهم بالهدايا الثمينة. حاكم الحكام: وفي ذلك الزمن كاهن تلك الأشياء التي تنتمي إلى الله. الخليفة، نائب الوكيل، أمير المؤمنين الحقيقيين، راعي (أبو) الانتصارات. الثابت في السيادة التي أعطاها الله له، والذي يجعل جيشه وشعبه المنتصرين، رفعه الله فوق علامة الجوزاء Gemini. ذلك هو لقب السلطان [٩٦].

والواقع أنه يمكن الحصول على الألقاب الكاملة للسلطان قانصوه الغوري من الوثائق العربية المحفوظة في أرشيف فلورنسا Florence، والتي تظهر أن ما أورده مارتن بومجارتن من ألقاب للسلطان قانصوه الغوري، يتشابه إلى حد كبير مع ألقابه في تلك الوثائق مما يظهر الدقة الشديدة له فيما أورده من معلومات. إذ ورد في استهلال أحدها الألقاب التالية " السلطان الأعظم المالك الملك الأشرف السيد الأجل العالم العادل المجاهد المؤيد المرابط المثاغر المظفر المنصور سيف الدنيا والدين سلطان الإسلام والمسلمين محيي العدل في العالمين منصف المظلومين من الظالمين وارث الملك ملك العرب والعجم والترك ظل الله في أرضه القايم بسنته وفرضه فاتح الأقطار مانح الممالك والأمصار إسكندر الزمان مولي الاحسان مملك أصحاب المنابر والأسرة والتخوت والتيجان مالك البحرين مسلك سبيل القبلتين خادم الحرمين الشريفين سلطان البسيطة مؤمن الأرض المحيطة جامع كلمة الإيمان ناشر لواء

(96) Martin Baumgarten, Op. Cit., p. 488.

العدل والإحسان سيد ملوك الزمان إمام المتقين قسيم أمير المؤمنين أبي النصر قانصوه الغوري خلد الله سلطانه ونصر جيشه وأعوانه وأعلا على هام الجوزاء مكانه" (٩٧).

كما جاء في استهلال ثلاث وثائق أخرى "قانصوه السلطاني الملكي الأشرفي السيفي أعلاه الله تعالى وشرفه وأنفذه وصرفه أن يسطر هذا المرسوم الشريف" (٩٨).

في حين وصفه ابن إياس بأنه "الملك الأشرف أبو النصر قانصوه من بيبردي الغوري الأشرفي، وهو السادس والأربعون من ملوك الترك وأولادهم بالديار المصرية، وهو العشرون من ملك الجراكسة وأولادهم في العدد. وكان أصله جركسي الجنس من مماليك الأشرف قايتباي وأعتقه فهو من معاتيقه". ويضيف "كانت سلطنته في يوم الإثنين مستهل شوال سنة ست وتسعمائة، ولقبوه بالملك الأشرف، وسما في علوه وأشرف، وكنوه بأبي النصر قانصوة الغوري" (٩٩).

سفارة الصفويين لقانصوه الغوري:

وقبل متابعة يوميات مارتن بومجارتن فلعل من أبرز ما ذكره مارتن بومجارتن ويتعلق بسياسات مصر الخارجية زمن قانصوه الغوري، أنه قبل وصوله لدمشق في الثالث من فبراير سنة ١٥٠٨م ببضعة أيام، أقامت بها سفارة الشاه إسماعيل الصوفي التي أرسلها للسلطان الغوري لبعض الوقت. وبشأن هذه السفارة أورد أن جميعهم يلبسون قبعات طويلة ذات اثنا عشرة طية (ثنية) ذات لون أحمر، ولهذا فهو ورجاله يسميهم الإيطاليون الذين يقيمون في تلك المناطق الشرقية بالإيطالية Biret Rossa، أي Red Caps وهو ما يعني القبعات الحمر (١٠٠).

ولعل سبب وتفاصيل هذه السفارة الصفوية التي أشار إليها مارتن بومجارتن في معرض حديثه عن الدولة الصفوية والشاه إسماعيل الصفوي، جاء على لسان ابن إياس إذ ذكر في تاريخه أنه في ربيع الاخر سنة ٩١٣ هـ، "جاءت الأخبار من عند نائب حلب بأن إسمعيل بن حيدر الصوفي المقدم ذكره قد تحرك على بلاد السلطان ووصل أوائل عسكره إلى ملطية، وحكوا عنه أموراً شنيعة في أفعاله، فلما بلغ السلطان ذلك تنكد إلى الغاية وجمع الأمراء وضربوا مشورة في أمر الصوفي، فأشار الأمراء على السلطان بأن يرسل إليه تجريدة فنادى للعسكر بالعرض، فطلع العسكر قاطبة إلى القلعة فعرضهم، وكان قاصد ابن عثمان حاضرا وخليل بيك بن رمضان أمير التركمان، فكتب من

(97) Michele Amari (ed.), I Diplomi Arabi del R. Archivio Fiorentino, Testo Originale con la Traduzione Letterale e Illustrazioni di Michele Amari, Firenze, MDCCCLXIII, pp. 221 – 222.

(98) Ibid., Op. Cit., pp. 215, 218, 226.

(٩٩) ابن إياس: المصدر السابق، ج ٤، ص ٢، ٤.

(100) Martin Baumgarten, Op. Cit., p. 487 – 8.

العسكر نحوا من ألف وخمسمائة مملوك، وعين من الأمراء المقدمين في تلك اليوم خمسة وهم قاني باي فرا أمير آخور كبير وجعله باشا على العسكر، وصحبته أرزمك الناشف أحد المقدمين ودولات باي قرموط وقانصوة كرت وتاني بيك الخازندار، وعين من الأمراء الطبلخانات والعشرات نحوا من عشرين أميرا، ثم عين بيبرس أمير آخور ثاني قرابته بأن يتوجه إلى حلب ويعلم النواب بمجيء العسكر وليجتهدوا في عمل اليرق، وأن نائب حلب يجمع عساكر حلب ويخرج ليحرس أطراف البلاد ويكشف الأخبار، ثم بطل ذلك جميعه فيما بعد كما يأتي الكلام على ذلك في موضعه" (١٠١).

وتابع ابن اياس في هذا الشأن قائلا إنه في جمادى الآخرة سنة ٩١٣هـ " وفي يوم الثلاثاء سادسه حضر قاصد من عند على دولات وأخبره أنما لما توجه إلى عسكر الصوفي تحارب معهم فكسرهم كسرة قوية فانهزموا نحو بلادهم مكسورين وقُتل منهم جماعة كثيرة، وأرسل علي دولات عدة رؤوس ممن قتل من عسكر الصوفي وفيهم شخص من أمرائه بالحياة وعلى رأسه طرطور أحمر، فلما عرضوا على السلطان سُر بهذه الواقعة وأمر بأن تعلق تلك الرؤوس على باب زويلة، فلما تحقق صحة هذه الواقعة بطل أمر تلك التجريدة التي كان عينها إلى الصوفي ورسم بإعادة النفقة التي كان نفقها على العسكر بسبب التجريدة" (١٠٢).

وأضاف ابن إياس "وفي شعبان (سنة ٩١٣هـ) حضر قاصد من عند إسمعيل شاه الصوفي وعلى يده مكاتبة يذكر فيها أن الذي وقع من عسكره في دخولهم إلى أطراف بلاد السلطان لم يكن ذلك عن إذنه ولا علم بذلك، فأكرم السلطان ذلك القاصد وأوكب له بالحوش موكبا حافلا، وكان هذا القاصد هو وجماعته في غاية الغلاسة، وعلى رؤوسهم طراطير حُمر ليس عليهم رونق بخلاف قصاد ابن عثمان" (١٠٣).

وتظهر هذه الرواية السابقة بشأن سفارة الشاه إسماعيل الصوفي إلى السلطان قانصوه الغوري بما لا يدع مجالا للشك أن ما أورده مارتن بومجارتن مماثل لما جاء عند ابن إياس بشأن تلك السفارة. ومدى دقة مارتن بومجارتن في وصف ما رآه أو سمعه في مصر وحرصه واهتمامه على كل ما يتعلق بها.

وهكذا رصدت رواية مارتن بومجارتن صفحة من صفحات العلاقات الخارجية لمصر مع الدولة الصفوية، فمما لا شك فيه أن الدولة الصفوية الشيعية التي ظهرت في الشرق في إيران والعراق في عام ١٥٠١م، وبرزت تطلعاتها نحو الشام عام ١٥٠٧م حين قامت قوة منها بمهاجمة حامية ملطية التابعة للمماليك، دفعت الغوري للرد عليها بقوة بحشد ١٥٠٠ من مماليكه توطئة لردع الصفويين. بيد أنه وقبل خروج القوات المملوكية من القاهرة وصل

(١٠١) ابن إياس: المصدر السابق، ج ٤، ص ١١٨.

(١٠٢) نفسه: المصدر السابق، ج ٤، ص ١٢١ – ١٢٢.

(١٠٣) نفسه: المصدر السابق، ج ٤، ص ١٢٣.

رسل من الشاه إسماعيل الصفوي للاعتذار عما بدر منهم وزعموا انه كان مجرد خطأ غير مقصود. ولما ظهر الرسل أجلافا داخل القصر السلطاني الفخم في القاهرة، أسقط السلطان الغوري أمر الصفويين من حساباته.

قرية المطرية وحديقة البلسم:

تابع مارتن بومجارتن ورفقته جولاتهم في القاهرة. ففي اليوم الثالث من أكتوبر سنة ١٥٠٧م، أجروا بغالا، واثنين من المماليك لحراستهم، وذهبوا إلى المطرية والتي يقول عنها "وهي قرية ليست بعيدة عن النيل، وعلى مبعدة ميل من القاهرة، حيث كانت يوما ما مشهورة حديقة شجرة البلسم، وحيث لا يوجد اليوم أكثر من مساحة قدم. ولقد فشل البلسم، وجف النبع المجاور، وكما أخبرونا كانت العادة ازدهار الأشجار وجعلها مثمرة للغاية، ونحو غروب الشمس عدنا إلى القاهرة" (١٠٤).

والواقع أن ميشولم بن ميناحيم كان قد شاهد الحديقة سنة ١٤٨١م، وقال إنها تتكون من حوالي مئة شجيرة صغيرة للغاية لكل منها أفرع رقيقة للغاية. وفي الحديقة نبع ماء جارٍ يتم رش الشجيرات، والأرض حولها بمياهه يوميا. والشجيرات تنمو في هذه الحديقة فقط. ولقد حاول المسلمون نزع بعض تلك الشجيرات بتربتها وزراعتها في مكان آخر، فكانت تبقى حية ومليئة بالعصارة وتعطي القليل من البلسم طالما كانت تسقى بمياه البئر. ولكنها كانت تذبل إذا وضعوا فوقها مياه أخرى. وأوضح أنهم يصنعون البلسم بنزع اللحاء من الشجرة، وتقطيعها لأفرع صغيرة، حيث يتدفق البلسم في وعاء يوضع أسفلها. وعلى الرغم من احاطة الحديقة بسور، إلا أن كل شجرة كنت محروسة بخمسة حراس. وكان كل البلسم المستخرج من الشجيرات يُحمل مرة في العام إلى السلطان. وهو يعطي منه كمية صغيرة لكل فرد من علية القوم. وشاهد ميشولم بن ميناحيم في منزل تغري بردي الترجمان حيث أقام، كمية صغيرة من البلسم معطاة له من السلطان. وكان له صديق يسمى محمد جرح أصابع قدمه بفأس بينما كان يقطع الخشب، لدرجة كاد أصبعه معها أن يقطع. ولقد وضع تغري بردي عليه بعض من هذا البلسم، فطاب الجرح في خلال ثلاثة أيام دون أن يترك أثرا. وعبر ميشولم بن ميناحيم عن تعجبه بأنه لم يشاهد في حياته شيئًا رائعًا مثل هذا البلسم، الذي كان غليظ القوام، ويشبه زيت الخروع (١٠٥).

وأخبرنا أرنولد فون هارف قبل مارتن بومجارتن بحوالي عقد من الزمان بظروف انحسار حديقة البلسم بالمطرية، وتحولها إلى الشكل الذي رآه عليها مارتن بومجارتن؛ فذكر أنه قيل له أن الاضطرابات التي دارت بين السلطان محمد ابن الأشرف قايتباي وبين المماليك الذين نازعوه السلطان لصغر سنه أدت لتدمير الحديقة. إذ نزع رجال الأمير قنصوه الذي نازع السلطان الأمر أثناء تراجعهم لفلسطين، الشجيرات الصغيرة من الحديقة، ودمروا

(104) Martin Baumgarten, Op. Cit., p. 446.

(105) Meshullam Ben R. Menahem, Op. Cit., pp. 174 – 5.

السواقي التي كانت ترويها، واستولوا على الثيران التي كانت تدير السواقي. وأضاف أرنولد أنه رأى بعينيه أنه لن ينمو بها لمدة عشر سنوات قادمة [١٠٦].

كذلك تؤكد رواية لابن إياس في هذا الشأن رواية مارتن بومجارتن بما لا يدع مجالا للشك من ناحية، ومن جانب آخر تظهر أنه قد حدث تغير في هذا الأمر بعد مغادرة مارتن بومجارتن لمصر بنحو السنة، إذ يورد ضمن ما سجله من أحداث شهر ذو الحجة سنة ٩١٤هـ، "وفي يوم الثلاثاء سابع عشرينه حصل للسلطان توعك في جسده وإسهال مفرط، وامتنع عن الخروج إلى الأمراء أياما، ثم عوفي من ذلك وأخلع على الحكماء. ومن النوادر أن البلسان، وهو الذي يسمونه الناس البلسم، كان قد انقطع زريعته من أرض المطرية من أوائل سنة تسعمائة من القرن التاسع، وكانت مصر تفتخر بذلك على سائر البلاد. وكانت ملوك الفرنج تتعالى في دهن هذا البلسم ويشترونه بثقله ذهبا، ولا يتم عندهم التنصر حتى يضعون من دهنه شيئا في ماء المعمودية وينغمسون فيه، وكان يستخرج دهنه شيئا في فصل الربيع في برمهات، فلما انقطعت زريعته من أرض المطرية تنكد السلطان لذلك، ولا زال يفحص من أمره حتى أحضر إليه بلسان بري من بعض أماكن بالحجاز وهو في طينه فزرعه بالمطرية في مكانه المشهور به، فنتج وطلع لما سقي من ماء تلك البئر التي هناك، فنتج في هذه السنة وطلع ما كان قد بطل أمره من مصر، فعُد ذلك من محاسن الملك الأشرف قانصوه الغوري، انتهي ذلك" [١٠٧].

وجدير بالذكر أن السفير الإيطالي دومينيكو ترافيزان سنة ١٥١٢م، حصل على إذن خاص بزيارة حديقة البلسم، وأوضح أن الشجيرات لا تزال تنتج البلسم حتى اليوم، ولكن بكميات أقل من الماضي، لأنه لم ينبثق منها الآن سوى بعض النقاط. ولقد قام بتحسس بعض هذه الشجيرات، التي كانت تشبه في مظهرها نبات الزعرور. وأظهر تعجبه من أن هذه الشجيرات هي الوحيدة التي تنتج البلسم في العالم، ولا تنمو إلا فيه، وتبلغ مساحة هذه الشجيرات عشرة أقدام. والسلطان يحرس هذه الحديقة بقوة كبيرة العدد، ولا يستطيع أحد رؤيتها إلا بصعوبة شديدة [١٠٨].

---

[١٠٦] لمزيد من التفاصيل عن قرية المطرية وحديقة البلسم وزيارات الأوروبيين لها في العصر المملوكي، راجع: إبراهيم سعيد فهيم محمود: حركة الحج الأوروبي، ج ٢، ص ١٢٦ – ١٢٨. وانظر كذلك:

Arnold von Harff, Op. Cit., pp. 104 – 5.

[١٠٧] ابن إياس: المصدر السابق، ج ٤، ص ١٤٩.

[108] Domenico Trevisan, Op. Cit., pp. 201 – 2.

الشجرة المقدسة بالمطرية

بريشة الرحالة والرسام الإسكتلندي ديفيد روبرتس David Roberts سنة ١٨٣٩م

وأكد الحسن بن الوزان الزياني المعروف بليون الأفريقي وكان قد زار مصر أكثر من مرة آخرها سنة ١٥١٧م، ما ذهب إليه ابن إياس، ودومينيكو ترافيزان، ومن قبلهما ميشولم بن ميناحيم بشأن شجرة البلسم، وعودتها للإنتاج مرة أخرى بكلماته "وعلى مسافة ميل من هذه الأضرحة تقع الأراضي الزراعية المسماة المطرية. وهنا يقع البستان والشجرة الوحيدة التي تنتج البلسم، إذ لا يوجد في العالم قاطبة سوى هذه الشجرة. وقد زرعت في وسط نبع يشبه البئر، وهي ليست بالشجرة الكبيرة جدا وأوراقها تشابه أوراق الكرمة، ولكنها أصغر. وبناء على ما سمعته يعتقد السكان أنه إذا انخفض ماء العين، يبست الشجرة فورا، وسيحدث لها أسوأ من ذلك إذا سقيت من ماء آخر. وفي ذلك إحدى عجائب الطبيعة. والبستان الذي تقع فيه محاط تماما بأسوار حصينة، ولا يمكن إليه إلا بالتماس كبير أو بفضل بعض الهدايا التي تقدم للحارس" [١٠٩].

ومهما يكن من أمر، وعودة لرحلة مارتن بومجارتن، واستكمالا لمقامهم في القاهرة، أخذ ورفقته يجهزون أنفسهم لزيارة دير القديسة كاثرين وغيره في سيناء. إذ يذكر أنه " وفي اليوم الرابع (من شهر أكتوبر) استعددنا لرحلة

[١٠٩] الحسن بن الوزان الزياتي: المصدر السابق، ص ٥٨٨.

جبل سيناء، حيث أجرنا يونانيا لكي يكون مترجمنا، وكان يفهم كلا من الإيطالية والعربية، وأعطيناه ست عشرة قطعة ذهبية أشرفي[١١٠]، وتزودنا بالأشياء الضرورية لرحلتنا، وقمنا بتأجير الجمال، ورغبنا في التجهز دون تأخير، وقمنا مباشرة بحزم أمتعتنا" [١١١].

الرحيل من القاهرة للمرة الأولى، ووصف الخانكة:

وهكذا، ووفق كلمات مارتن بومجارتن "وفي صباح الخامس من أكتوبر حملنا جمالنا بالسلال (القفف) بتوازن على كلا الجانبين، ولقد جلسنا بدورنا فوقها. ثم رحلنا من القاهرة بصحبة اثنين من الفرانسيسكان، ولقد تمت معاملتنا بشكل همجي من بعض صبية المسلمين saracens، الذين رشقونا بالقاذورات، والطوب، والغبار والفاكهة العفنة، بينما حاولنا طول الوقت الحفاظ على صبرنا. وبعدما طُرحنا واهتززنا بشكل بائس بسبب الهرولة غير السهلة لجمالنا التي كنا غير معتادين عليها، وصلنا إلى الخانكة [١١٢] Alcanica ، حيث أقمنا في منزل للرهبان اليونان، الذين اعتادوا تجميع وإرسال المؤن من هنا لدير القديسة كاثرين. وفي اليوم السادس من أكتوبر قدم أحد العربان Arabian الذي عرف بوجودنا، وانتظرنا ومعه جمع متطاول من عصبته وسببوا لنا متاعب ضخمة، وكانت الوسيلة الوحيدة

---

[١١٠] **الدينار الأشرفي:** عملة ذهبية تعود للقرن الخامس عشر الميلادي، سكت لأول مرة عام ١٤٢٥م في مصر المملوكية، وأطلق عليها هذا الاسم نسبة للسلطان الأشرف برسباي، وكانت تزن 3.45 جرام. والذي حل بنجاح محل الدوكات كعملة ذهبية أولى في سلطنة المماليك حتى نهايتها. ويذكر محمد أبو الفرج العش أن الدينار المملوكي بصفة خاصة وزنه غير ثابت، ولو أنه في أكثر الأحيان، يكون بين ٣ – ٣.٥ جرام ذهب. ومن الملاحظ في سك النقود المملوكية هو إصدار دنانير مضاعفة، مرتين وثلاث وأربع مرات وزن الدينار المعتاد. إذ يوجد دينار وزنه 16.85 جرام ذهب. وللمزيد من التفاصيل، انظر: محمد أبو الفرج العش: مصر . القاهرة، على النقود العربية، بحث ضمن أبحاث الندوة الدولية لتاريخ القاهرة، مارس . أبريل، ١٩٦٩، ثلاثة أجزاء، القاهرة (مطبعة دار الكتب)، ١٩٧٠ . ١٩٧١م، الجزء الثاني، ١٩٧١م، ص ٩٦١. وكذلك:

Bacharach, J. L., Op Cit., pp. 77 – 96.

[111] Martin Baumgarten, Op. Cit., p. 446.

[١١٢] سماها الحسن بن الوزان الخانقاة وأورد بخصوصها "الخانقاة مدينة كبيرة مبنية على طرف الصحراء التي تقع على طريق سيناء. على مسافة ستة أميال من القاهرة. وتضم بيوتا جميلة وجوامع حسنة ومدارس. وعلى مسافة ستة اميال على الطريق بين هذه المدينة وبين القاهرة يوجد الكثير من البساتين وحدائق النخيل، ولكن من هنا إلى ميناء سيناء لا يوجد أي مكان مأهول على مسافة مائة وأربعين ميلا. وسكان الخانقاة واسعو الثراء لأن المسافرين يتجمعون فيها بقصد السفر إلى القافلة إلى بلاد الشام. ويشتري هؤلاء المسافرين منها أشياء مختلفة تأتي من القاهرة، إذ لا ينبت شيء في خانقاه فيما عدا النخيل. وينطلق منها طريقان رئيسيان، الأول يذهب إلى جزيرة العرب والآخر إلى بلاد الشام. وليس لها من موارد أخرى للماء سوى ما يأتي إليها بواسطة القنوات من فيضان النيل وينتشر الماء في السهل حيث يشكل بحيرات صغيرة، ومنها يجر الماء إلى المدينة بواسطة سواق ويدخل في الصهاريج والخزانات. انظر: الحسن بن الوزان الزياتي: المصدر السابق، ص ٦٠٨ – ٦٠٩.

لتجنب تلك المتاعب بتقديم بعض القطع الفضية، التي كانت الوسيلة الوحيدة لذلك. ووصف مارتن بومجارتن الخانكة بالمدينة الضخمة والمزدحمة بالسكان، ولكنها (مثلها مثل المدن الأخرى في مصر كانت) بدون أي تحصين. وهي تبعد عن القاهرة مسافة ميلين وتوجد في صحراء رملية ليست بعيدة عن النيل [١١٣].

ومما يذكر بهذا الشأن أن الربي الإيطالي ميشولم بن ميناحيم نزل بمدينة الخانكة Alhanika التي تبعد ميلين عن القاهرة في شهر يوليو سنة ١٤٨١م، والتي وصفها بالمدينة الضخمة المسورة، وأن عشرين أسرة يهودية كانت تقيم بها. وذلك انتظارًا للقافلة التي كان سيرافقها في الطريق إلى سيناء [١١٤]. وأيضا فعل الربي الإيطالي عوباديا جاريه دا بيرتينورو سنة ١٤٨٧م، حيث بقي بالخانكة Chanak يومين استأجر ورقته خلالها الجمال لنقلهم إلى بيت المقدس [١١٥]. كذلك أقام الفرنسي جان ثينو في شهر يونيو سنة ١٥١٢م بدوره في مدينة الخانكة التي سماها Hanque انتظارا للقافلة التي رافقها في طريقه لدير القديسة كاثرين بسيناء [١١٦]. وبهذا الشكل، تؤكد روايات الأوروبيين أن الخانكة كانت نقطة انطلاق القوافل المتجهة إلى سيناء، وأنها كانت فيما مضى قبل زيارة مارتن بومجارتن لها مدينة مسورة.

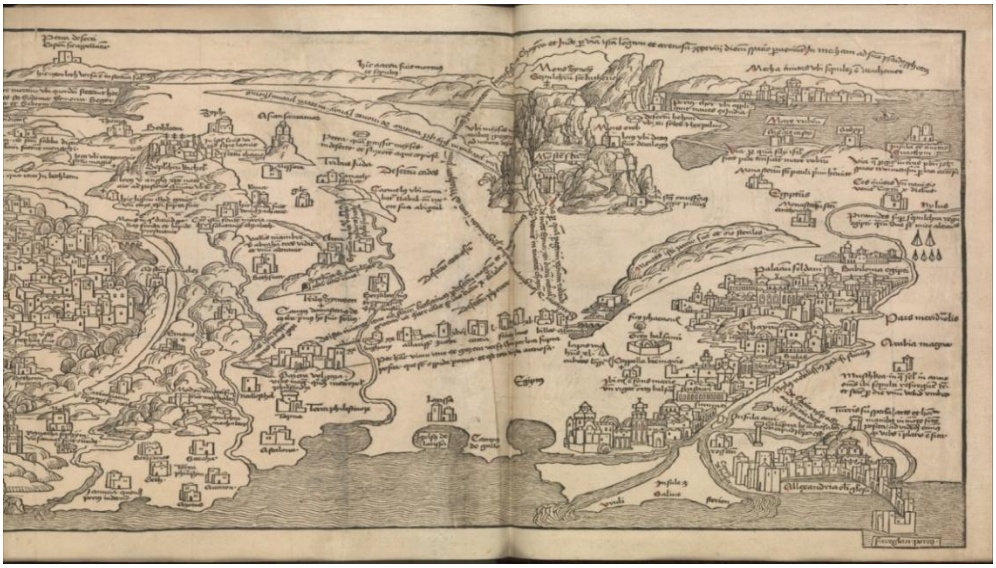

خريطة من رحلة برايدنباخ تظهر فيها خطوات الرحلة في مصر وفلسطين

(113) Martin Baumgarten, Op. Cit., p. 446.

(114) Meshullam Ben R. Menahem, Op. Cit., p. 175.

(115) Obadiah Jaré da Bertinoro, Op. Cit., p. 231.

(116) Jean Thenaud, Op. Cit., p. 61.

الطريق إلى دير القديسة كاثرين بسيناء:

وفي اليوم السابع من أكتوبر، ركب مارتن بومجارتن ورفقته جمالهم ورحلوا عن الخانكة، وقبل سفرهم لمسافة ميلا والكلام دائما له، انضموا إلى قافلة. وانتظرت القافلة ريثما يأتي عدد كاف من المسافرين، مما يجعل السفر أكثر أمنا خلال البلد، التي يزعجها هجمات لصوص العربان Arabians. وهناك أنزلوا حمولة جمالهم، وعملوا نوعاً من التحصينات مع سلالهم التي استخدموها كمقاعد لهم أثناء ركوبهم، حيث جلسوا بداخلها ومعهم أمتعتهم، وبالكاد وكما أشار كانوا يجرؤون على الأكل والشرب. ويضيف "وأثناء الليل وبينما كان المسلمون Saracens المسافرين معنا نياما، جرؤنا على أكل القليل، وبعد ذلك نمنا قليلا داخل هذا التحصين، في حين تبادلنا الحراسة. في الوقت الذي كدنا جميعا أن نقتل بالضوضاء والرائحة الخانقة للجمال. وفي الليل سمعنا صرخة مريعة في نهاية القافلة، نتيجة لاكتشاف بعض العربان يسرقون، ولخوفهم من الصيحة هربوا ببعض السجاجيد، ورمح، وسلة من الخبز" [١١٧].

ومما يلفت النظر بشأن هؤلاء العربان ما ذكره الفرنسي جان ثينو بعد ذلك بخمس سنوات (١٥١٢م) من أن المماليك دائما ما يحاربون العربان الذين يتجسسون على القوافل ويأتون معا في مئتي ألف أو ثلاثمائة ألف ليهاجموها، ولكن مئة مملوك مسلح يحاربون دائما عشرة آلاف من العربان الذين اقتصر تسليحهم على الرماح والأقواس. وهم شبه عراة وصغار البنية تصبغ الشمس بشرتهم، ولديهم قامة متناسقة، وصوت أنثوي [١١٨].

وذكر ابن إياس بشأن اضطراب الأمن في الشرقية والغربية بسبب العربان وقت زيارة مارتن بومجارتن لمصر في أحداث شهري المحرم وصفر سنة ٩١٣هـ "وفيه جاءت الأخبار أن عربان الشرقية هاجوا ونهبوا الضياع، فعين لهم السلطان في ذلك اليوم تجريدة وعين بها الأمراء سودون العجمي أمير مجلس وأنصباي حاجب الحجاب وتمر الزردكاش أحد المقدمين ودولات باي قرموط، ومن المماليك السلطانية نحوا من خمسمائة مملوك فخرجوا من يومهم وقد تقدم القول بأن الأتابكي قرقماس خرج قبل ذلك إلى نحو الشرقية والغربية. فلما سمع بمجيء العسكر لاقاهم من هناك". وفي شهر ربيع الأول "وفيه كان رجوع الأمراء والعسكر الذين توجهوا للشرقية بسبب فساد العربان فرجعوا بغير طائل من ذلك". وكذلك أنه "في جمادى الآخرة في يوم السبت ثانيه رسم السلطان بتوسيط شخص من العربان المفسدين يسمى عبيد بن أبي الشوارب، فوسطه عند قنطرة الحاجب، ووسط معه أيضا شخصا يسمى قاسم الغريب، وكانا من كبار المفسدين بالشرقية" [١١٩].

---

(117) Martin Baumgarten, Op. Cit., p. 446.

(118) Jean Thenaud, Op. Cit., p. 37.

(١١٩) ابن إياس: المصدر السابق، ج ٤، ص ١١٥ – ١١٦، ١٢١.

ولقد أورد لنا مارتن بومجارتن وصفا بتفاصيل يوميات رحلته ورفقته عبر سيناء والتي استغرقت حوالي عشرة أيام في شهر أكتوبر سنة ١٥٠٧م حتى الوصول لدير القديسة كاثرين. والواقع أننا لا نجد أفضل من يعبر عنها من كلماته، ولذا آثرنا أن نوردها كما سجلها. إذ يذكر أنه "وفي الثامن من أكتوبر دخلنا الصحراء العربية، التي عبر خلالها الإسرائيليون من مصر إلى أرض الميعاد، وانضم إلينا عدد ضخم جدا من المسافرين، وازداد عدد الرجال والجمال لدرجة أننا ظهرنا كما لو أننا جيشا مؤلفا من عدة ألوف [١٢٠].

"وفي اليوم التاسع سرنا خلال صحراء رملية مروعة، لا يظهر فيها أي شيء أخضر مثل الأشجار البرية أو الأشواك أو على الأقل شجيرات. وفي المساء وصلنا إلى سهل منخفض، وجد فيه سائقي بغالنا Muorels شجيرات صغيرة اقتلعوها وأعطوها لجمالهم. وفي المساء أمطرت بشكل شديد جدا، وهو ما تؤكد كتابات القدماء أنه لم يحصل أبدا في مصر" [١٢١].

"وفي اليوم العاشر قدمنا إلى خليج البحر الأحمر، حيث كان يوجد خندق عميق وواسع يمتد من هنا حتى النيل للربط بين الشرق والغرب ويسهل التجارة. وفي هذا الموضع، ولأن جمالنا لم يشربوا لمدة ثلاثة أيام أقمنا معسكرنا وبقينا حتى منتصف الليل [١٢٢]. وهذا الخليج لا ينسي فقد عبره أبناء إسرائيل تحت قيادة موسى دون أن تبتل أقدامهم. وهنا حيث قُهر الفرعون مع جيشه المكون من المشاة والفرسان وسائقي العربات الحربية بقوة الأمواج. وحدث أن مات أحد الجمال ذلك اليوم. وفي تلك الأثناء اشترينا دجاجتين من أحد العربان قمنا بطهوها على نيران أشعلناها من روث الجمال وأكلناها. وفي الليلة التالية ارتعدنا من صرخة مفاجئة ارتفعت ضد بعض العربان اللصوص، ولكنهم هربوا مع ما استطاعوا الظفر به، بينما كان جمعنا في عجلة واضطراب" [١٢٣].

---

(120) Martin Baumgarten, Op. Cit., p. 446.

(121) Ibid., Op. Cit., pp. 446 – 7.

(١٢٢) ذكر جان ثينو أنهم في طريقهم إلى سيناء قضوا ثلاثة أيام وهم في طريقهم إلى سيناء دون أن يجدوا ماء، ولكنهم عندما وصلوا إلى ميناء يقع على البحر الأحمر يسمى بالسويس، كانت هناك عين ماء قليلة الملوحة صالحة لشرب الجمال وليس للبشر، حيث أقامت قافلتهم طوال النهار لراحة الحيوانات ثم اقتربوا من عيون موسى. انظر:

Jean Thenaud, Op. Cit., p.٦٢.

(123) Martin Baumgarten, Op. Cit., p. 447.

صورة عامة للسويس

بريشة الرحالة والرسام الإسكتلندي ديفيد روبرتس David Roberts سنة ١٨٣٩م

"وفي اليوم الحادي عشر سلكنا دائرة حول الخليج بالقرب من الشاطئ، حيث تقابلنا مع قافلة أخرى قادمة من الطور مع صقور. ولم نكن نستطيع رؤية مقدمة ونهاية القافلة، وكانت ضخمة جدا في أعداد الرجال والجمال والبغال. وفي هذا المساء وصلنا إلى إيليم [١٢٤] Elim حيث سجل سفر الخروج وجود اثنا عشرة عينا بها، وسبعين نخلة. ولا تزال العيون موجودة، أما النخيل فقد أصبحت غير موجودة، إذ يوجد بها فقط بعض الشجيرات. وبالقرب من تلك العيون وكما أخبرونا، لقي خمسة عشرة رجلا حتفهم في يوليو الفائت من العطش والحرارة. ولقد أقمنا معسكرنا بالقرب منها، كما توفى جمل آخر لنا"[١٢٥].

---

[١٢٤] **إيليم:** واحدة من المواقع التي تم الإشارة إليه في العهد القديم كواحد من المواقع التي عسكر فيها بنو إسرائيل بعد خروجهم من مصر. وأشير إليه في سفر الخروج الإصحاح رقم ١٥ الآية رقم ٢٧ ونصها (ثم جاءوا إلى إيليم وهناك اثنتا عشرة عين ماء وسبعون نخلة. فنزلوا هناك عند الماء)، وسفر العدد الإصحاح رقم ٣٣ الآية ٩ ونصها (ثم ارتحلوا من مارة إلى إيليم، وفي إيليم اثنتا عشرة عين ماء وسبعون نخلة، فنزلوا هناك)، حيث أقام بنو إسرائيل بجوارها بالقرب من الساحل الشرق للبحر الأحمر. ويعتقد أن موقعها وادي الجرندل وهي واحة تقع على مبعدة مئة كيلو متر جنوب شرق السويس. ويعتقد البعض الآخر أن مكانها هو منطقة عيون موسى.

[125] Martin Baumgarten, Op. Cit., p. 447.

عيون موسى

بريشة الرحالة والرسام الإسكتلندي ديفيد روبرتس David Roberts سنة ١٨٣٩م

"وفي اليوم الثاني عشر سافرنا عبر الجبال التي تطل على البحر الأحمر، وهناك وجدنا أن المياه التي أحضرناها معنا من الخانكة لأجل الشرب قد نفذت، مما أجبرنا على أخذ المياه التي استطعنا أن نجدها هنا بأيدينا، ووضعناها في آنيتنا لنأخذها معنا. ولم تكن فقط طينية ومالحة، ولكن بعضها كان مر أيضا. ولقد أرونا مكان به بئر يسمى جندل Gundele، به مياه متدفقة تغلي لأعلى. وفي ذلك الوقت يبدو أن أحد الفرانسيسكان الذي كان يجلس بشكل غير سليم على ظهر جمله، ويتنقل من جانب لآخر قد أضجر دابته، الأمر الذي أغضب سيدها فضرب الفرانسيسكاني على وجهه وجرحه" (١٢٦).

"وسافرنا كل يوم الثالث عشر (ورد خطأ في النص يوم الخامس عشر) عبر جبال مرتفعة وبيضاء فوصلنا في المساء إلى البحر الأحمر ثانية. ولقد كان الطريق ضيقا جدا في بعض المواضع لدرجة أننا كنا نسير أحيانا في البحر. ولقد جمعنا قواقع غريبة، وأحجار صغيرة، ومرجان أبيض. وفي الليلة التالية انفصلنا عن القافلة، فقد ذهبت لاستكمال طريقها بجوار الساحل تجاه الطور بينما اتجهنا نحن نحو اليسار، وذهبنا نحو الجبال. وفي تلك الأثناء

(126) Martin Baumgarten, pp. 447 – 8.

توفي جمل سائق بغالنا، فقام هو وصحبته بتمزيق لحمه وأكله، وحشو جلده بالقش والتبن لحفظه لاستخدام آخر" [١٢٧].

"وفي اليوم الرابع عشر، وبينما نسافر عبر جبال حمراء مرتفعة لامعة الألوان، خذلتنا مياهنا، وكان زادنا خبز مخبوز مرتين، وجبنة جافة، والآن وفي بعض الأحيان ألسنة نظيفة مملحة وجافة. وذهب أعرابي كان في صحبتنا من أجل مكافأة محددة، مسافة ميل وجلب لنا زجاجة مياه كانت مليئة بديدان صغيرة حمراء. ولقد رشحناها بقطعة قماش، وكنا نشربها عند الضرورة بقدر عظيم من الاستمتاع. وحصل الأعرابي الفقير في حينه على مكافأته التي تمثلت في قطعة فضية من تلك المسماة مديني maydins، فثقب أذن زوجته وعلق فيها قطعة العملة، فقامت من فورها بالقفز والرقص بطريق غريبة، ثم قدمت إلينا ولمست ركبة الذي دفع المال وقبلت يده" [١٢٨].

"ورأينا في الإقليم كثيرًا من الأشجار الضخمة تحمل أشواكًا طويلة حادة مدببة، من ذلك النوع الذي يقال إن تاج السيد المسيح صنع منه [١٢٩]. وكانت هذه الأشجار مزهرة في تلك الفترة، وترسل رائحة طيبة للغاية سببت لنا انتعاش تام، ولقد أخذنا معنا الكثير من هذه الأشواك. وفي المساء أتينا إلى ممر ضيق بين المرتفعات، وللخوف من العربان اللصوص أن يقطعوا علينا الطريق، أمضينا الليل في هذا المكان، ولكن سائقي بغالنا الذين كانوا يعرفون الإقليم جيدا ذهبوا ليسقون جمالهم، ولم يعودوا إلا متأخرا جدا" [١٣٠].

"وفي اليوم الخامس عشر وصلنا إلى جبال منحدرة مرعبة. وفي المساء وصلنا إلى حديقة نخيل حيث تم معاملتنا ببربرية من قبل الناس الذين يعيشون هناك. فما أن فهموا أننا مسيحيين، هموا لسرقتنا، وصاحوا صيحة بشعة، وهددونا بالأقواس والرماح. ولقد تجاهل ترجماننا الأمر لبعض الوقت، ولكنه قام بدوره في آخر المطاف. ومع ذلك فقد أسقطونا خمس مرات، وأخذوا جزء من مؤنتنا، والتي لم تكن كثيرة، وبعد ضوضاء كبيرة سمحوا لنا بالمغادرة، بعد أن دفعنا ثمان قطع فضية عن كل رجل منا. وهذه الحديقة تمتد لمسافة ميل في ممر ضيق بين الجبال، حيث من المستحيل على أي شخص أن يتحرك يمينا أو شمالا، ولكنه يتحرك بصعوبة خلالها عبر ممرات ضيقة بين صفوف الأشجار. وما أن خرجنا من هذه الغابة، حتى سقطنا ببؤس في أيدي عربان آخرين يدعون أنفسهم حماة

(127) Ibid., Op. Cit., p. 448.

(128) Ibid., Op. Cit., Loc., Cit.

[١٢٩] لعله يقصد بها شجرة السدر التي تعرف باسم شجرة إكليل شوك المسيح.

(130) Martin Baumgarten, Op. Cit., p. 448.

وحراس دير القديسة كاثرين، الذين أخبرونا أنهم لن يتركونا إلا إذا أخذوا منا عشرة مديني قبل أن يسمحوا لنا بالتقدم، وكان كل ٢٥ مديني تساوي دوكات" [١٣١].

صعود سلسلة جبال سيناء الصغرى

بريشة الرحالة والرسام الإسكتلندي ديفيد روبرتس David Roberts سنة ١٨٤٩م

وفي اليوم السادس عشر وفي منتصف الليل واصل مارتن بومجارتن ورفقته رحلتهم، غير أن مكاريي الخيول بدأوا في الثورة ضدهم وطلبوا منهم دينارين أشرفي. وعندما ناقش مارتن بومجارتن ورفقته الأمر معهم، قادوا جمالهم أمامهم وذهبوا وتركوهم مع أمتعتهم في الصحراء الضخمة المخيفة بمفردهم. ولكن مارتن بومجارتن ورفقته ولشعورهم بالخطر الذي هم فيه، أرسلوا واحدا في أعقابهم نجح في إقناعهم بالعودة بعد وعود ضخمة [١٣٢].

(131) Martin Baumgarten, Op. Cit., p. 448.

(132) Ibid., Op. Cit., pp. 448 – 9.

دير سانت كاثرين

بريشة الرحالة والرسام الإسكتلندي ديفيد روبرتس David Roberts سنة ١٨٣٩م

<u>دير القديس كاثرين:</u>

عند شروق الشمس يوم السابع عشر من أكتوبر وصل مارتن بومجارتن ورفقته دير القديسة كاثرين، وقُبلوا بداخله، بعد أن سلموا الخطاب الذي جلبوه من بطريرك اليونانيين في القاهرة إلى مقدم الدير. ولقد عُينت لهم غرفة للإقامة، كما تناولوا بعض الطعام، وأخذوا قسط من الراحة. ولكن حدث أن اقتحم غرفتهم وأحاط بهم جمع من العربان استولوا على حاجياتهم وهم يكررون كلمة واحدة tlus ، ولعل مارتن بومجارتن يقصد بها فلوس، فقد عقب أن الكلمة تعني بالنسبة لهم المال. وبعد أن أعطاهم مارتن بومجارتن وصحبته المال، أغلقوا أبوابهم ثانية، ثم خلدوا للراحة (١٣٣).

والواقع أن الحجاج العابرين لشبه جزيرة سيناء سواء أكانوا مسيحيين أو مسلمين، تجارا كانوا أو زائرين، عانوا من مثل هذه الأفعال البربرية لعربان المنطقة الشرقية أو شبه جزيرة سيناء، ولقد أورد ابن إياس العديد من أمثلة

(133) Martin Baumgarten, Op. Cit., p. 449.

التصرفات الهوجاء للعربان في تلك المرحلة من تاريخ مصر كما سيرد الذكر. ولعل من أهم الحوادث في هذا المجال حادثة قتل رئيس رهبان الدير سنة ١٤٩٤م، قبل زيارة مارتن بومجارتن له بنحو ثلاث عشرة سنة [١٣٤].

وفي الساعة الثانية من صباح يوم الثامن عشر من أكتوبر ذهب مارتن بومجارتن ورفقته إلى جبل حوريب [١٣٥] Horeb. وكان في صحبتهم اثنان من الرهبان اليونانيين ممن يسمون Calageri، وثلاثة من العربان الذين يعيشون في دير القديسة كاثرين، الذين أنابهم مترجم مارتن بومجارتن لكي يكونوا مرشديهم، إذ كان المترجم سمينا للغاية لدرجة كان لا يستطيع معها تسلق هذا الارتفاع. وصعد الجمع الجبل بالاستعانة بضوء القمر، حاملين مؤنتهم واحتياجاتهم الضرورية معهم. ولم يكن صعود الجبل بالمهمة اليسيرة، وهو ما جعل مارتن بومجارتن يقول "ولقد اعتدنا أن نسترح في الطريق لكي نستعيد أنفاسنا المفقودة، وأخذنا نشجع

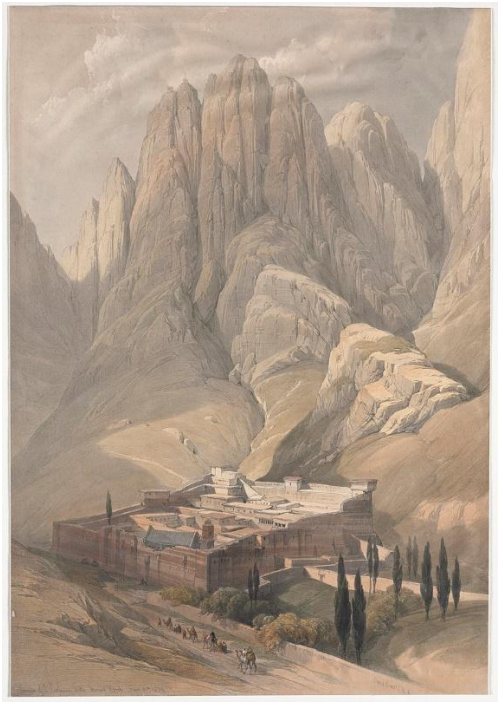

دير سانت كاثرين وجبل حوريب

بريشة الرحالة والرسام الإسكتلندي ديفيد روبرتس David Roberts سنة ١٨٣٩م

---

(١٣٤) أُفردت دراسة قيمة مطولة لهذه الحادثة. انظر: عمر جمال محمد على (دكتور): حادثة قتل رئيس رهبان دير سانت كاترين في أواخر العصر المملوكي (سنة ٨٩٩هـ / ١٤٩٤م) دراسة في ضوء الوثائق المحفوظة في مكتبة الدير، ج ٢، العدد (٣٥)، مجلة وقائع تاريخية، كلية الآداب – جامعة القاهرة، القاهرة، يوليو ٢٠٢١م.

(١٣٥) **جبل حوريب:** يعرف كذلك بجبل موسي، وهو الجبل الذي أعطى الله فيه الوصايا العشر لنبيه موسى عليه السلام.

بعضنا الواحد الآخر لإنجاز المهمة". إذ كان صعود هذه التلة المنحدرة والمرتفعة، وكما أخبرهم مرشديهم الرهبان بحاجة لصعود سبع آلاف درجة من الحجر المربع. وبالوصول لمنتصف الطريق الصاعد للجبل، وجدوا كنيسة صغيرة مكرسة للعذراء، وبداخلها نبع صاف كان نافعا جدا للغرباء. وفي تلك الكنيسة رفض العربان الثلاثة الذين كانوا بمثابة حراسهم ومرشديهم التقدم أو التراجع إلا إذا وعدوا بإعطائهم بعض الأموال، وهو ما فعله مارتن بومجارتن ورفقته [١٣٦].

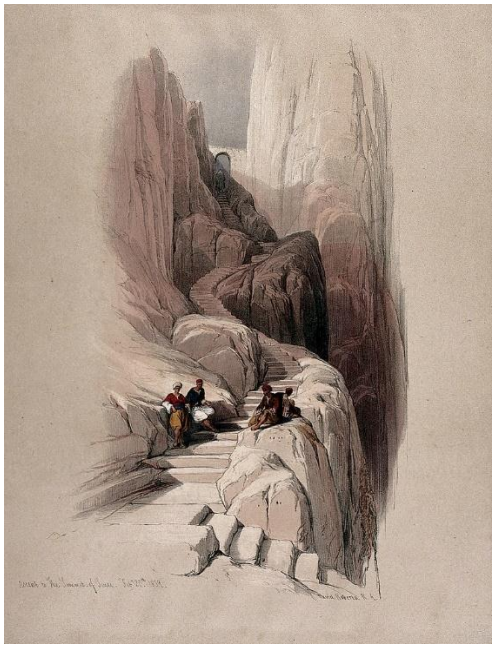

صعود قمة جبل سيناء

بريشة الرحالة والرسام الإسكتلندي ديفيد روبرتس David Roberts سنة ١٨٣٩م

تابعت الرفقة الصعود، وكما يسجل مارتن بومجارتن، وصلوا إلى كنيسة إيليا Helias الصغيرة [١٣٧]، وبعد جهد جهيد ارتقوا قمة جبل حوريب، حيث قدموا شكرهم لله تعالى. ومن تلك

[136] Martin Baumgarten, Op. Cit., p. 449.

[١٣٧] صعد الفرنسي جان ثينو بدوره جبل حوريب، حيث شاهد فيه كنيسة إيليا Helye. انظر:

Jean Thenaud, Op. Cit., p.٧٥.

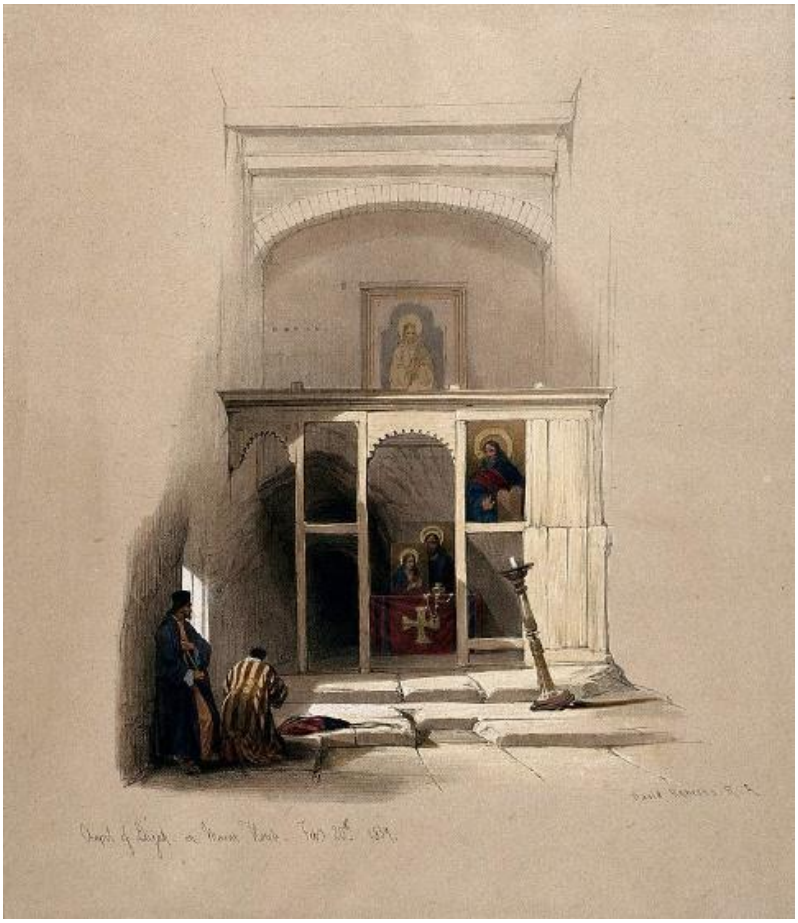

كنيسة إيليا Elijah . جبل سيناء

بريشة الرحالة والرسام الإسكتلندي ديفيد روبرتس David Roberts سنة ١٨٣٩م

البقعة، ذهبوا إلى كنيسة مكرسة للسيد المسيح مبنية في هذا المكان، حيث وكما يقال تحدث سيدنا موسى مع الله، واستلم منه الوصايا. وقريب جدا من هذه الكنيسة توجد صخرة هي الأعلى في الجبل محيطها عشرين خطوة، وفي ذلك المكان يقال إن الله تحدث مع موسى. وعلى بعد خمس عشرة خطوة منها هناك مسجد للمسلمين بني فوق المكان الذي يقال إن موسى صام فيه أربعين يوما وأربعين ليلة قبل تلقي الوصايا. وفي تلك الكنيسة اعتاد المسلمون الانجاب لاعتقادهم أن الأطفال الذين ينجبون هنا مقدسون، وممتلئون بروح النبوة. وعلى أرض عارية نام مارتن بومجارتن وصحبته طوال الليل في الكنيسة المكرسة للمسيح، مما جعلهم يرتعدون من البرد، وذكر أنهم لم يحصلوا إلا على قسط قليل من النوم، أو بالأحرى لم يستطيعوا النوم كلية طوال الليل. ونوه مارتن بومجارتن إلى إقامة الشعائر الدينية الإسلامية في المسجد الموجود فوق جبل

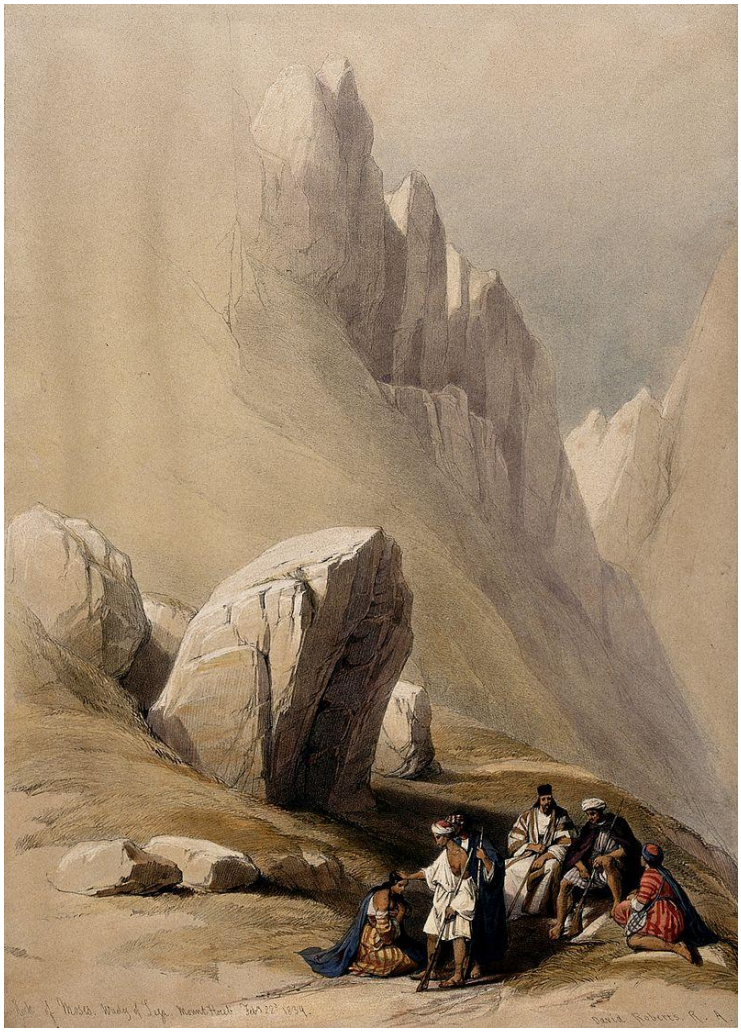

صخرة موسى . جبل حوريب

بريشة الرحالة والرسام الإسكتلندي ديفيد روبرتس David Roberts سنة ١٨٣٩م

سيناء في قوله "إلى جانب ذلك أحدث عربانا الثلاثة الذين ذهبوا داخل مسجدهم للتعبد لله بطريقتهم [١٣٨]، ضجة طوال الليل، فسببوا لنا اضطرابا كبيرا" [١٣٩].

[١٣٨] ذكر الفرنسي جان ثينو أمر هذا المسجد الصغير وتعبد المسلمون فيه. انظر:

Jean Thenaud, Op. Cit., p.٨٠.

[139] Martin Baumgarten, Op. Cit., p. 4٤٩.

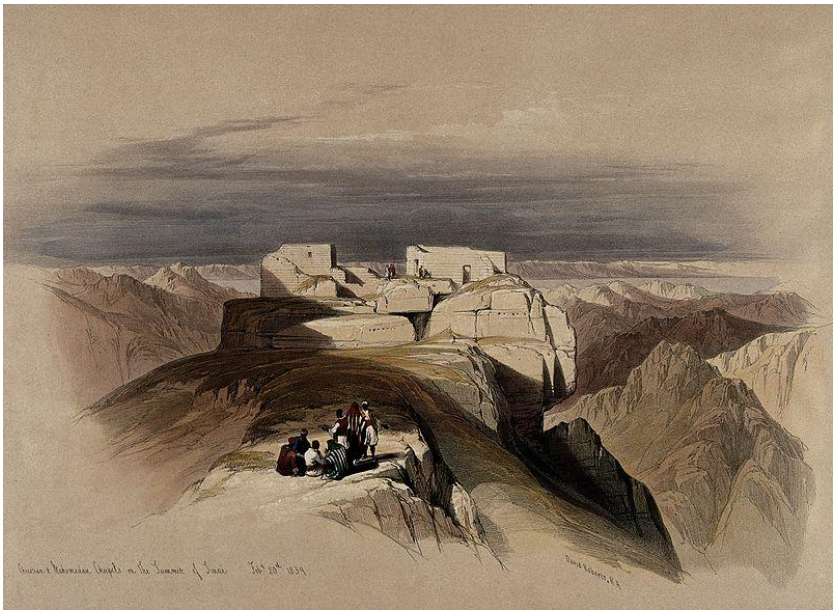

الكنيسة والمسجد فوق جبل سيناء

بريشة الرحالة والرسام الإسكتلندي ديفيد روبرتس David Roberts سنة ١٨٣٨م

<u>الصعود فوق جبل سيناء:</u>

حوالي شروق شمس اليوم الثامن عشر من أكتوبر، بدأ مارتن بومجارتن ومن معه في النزول من الجهة الغربية من جبل حوريب من طريق حاد وخطر للغاية، فأتوا وادي بين جبلي حوريب وسيناء، حيث وجدوا ديرًا مكرسًا للأربعين قديسا أنعشوا فيه أنفسهم قليلا. ولقد تركوا أمتعتهم في رعاية أحد الرهبان لصعود جبل سيناء، غير أنهم لم يشرعوا في صعوده في الحال، لأن مرشديهم بدأوا في تهديدهم باستخدام العنف ضدهم إذا لم يعطوهم المزيد من الأموال. ولأنه لم يكن معهم نقود ولرغبتهم في إنهاء تلك الرحلة التي كانوا قد أزمعوا القيام بها، وعدوهم بدينار أشرفي وهي كل ما كانوا يرغبون فيه [١٤٠].

ويذكر مارتن بومجارتن أنهم كانوا ولأجل أمنهم قد أخذوا معهم مرافق آخر في رحلتهم، وهو راهب من دير القديسة كاثرين، غير أن العربان الثلاثة مرشديهم أقسموا أنهم سيقتلونه بدوره إذا لم يوفوا بوعدهم. وتحت تلك الشروط بدأوا رحلتهم بصعوبة وخطر أكبر من ذلك الذي كان في جبل حوريب. ففي ذلك الوقت كانت الشمس تتوسط السماء،

(140) Ibid., Op. Cit., p. 450.

وكانت قمم الجبال التي تحيط بهم توقف النسمات الباردة والمنعشة، وتابع مارتن بومجارتن بالقول "إلى جانب ذلك نسينا من غبائنا إحضار الخبز، وجعلنا مرشدينا المخادعين نعتقد أننا سوف نجد مياه كافية على الجبل" (١٤١).

وتذكر اليوميات أن الصعود كان منزلق وحاد، وكانت الركب القوية لا تتحمله، وذلك في ظل خطر انزلاق الصخور في حالة تحرك إحداها. وأشار مارتن بومجارتن إلى أنهم عندما صعدوا لأعلى بدأوا ينتعشوا قليلا بالنسيم المنعش، وأن مشهد الماعز الجبلي التي تجري بين الصخور أضاع الإحساس بالجهد. وفي تلك الأثناء أنعشوا أنفسوا بالقليل من السكر، ثم تابعوا الصعود، في بعض الأحيان متسلقين، وفي أحيان أخرى زاحفين، مما جعلهم يفقدون إلى حد ما أنفاسهم (١٤٢).

إلى جانب ذلك كان الرهبان والعربان الذين رافقوا مارتن بومجارتن وصحبته متعبون للغاية، لدرجة أنهم عرفوا الجبل بالكاد. فقد كانت هناك الكثير من قمم الجبال المرتفعة التي تشبه بعضها الآخر. وفي النهاية تعرف العربان على الطريق بواسطة كومات من الأحجار التي وُضعت لإرشاد الزوار المتتابعين إلى طريقهم. وبعيدا عن صعود الجبل أشار مارتن بومجارتن عرضا إلى أحوال التجارة الخارجية المصرية في البحر الأحمر، وذلك في قوله إنهم "بعد مجهود شاق وبمساعدة الرب وصلنا أخيرا إلى قمة الجبل. ومنه نستطيع وصف الطور، الميناء الشهير على البحر الأحمر، وإليه تأتي السفن المحملة بالتوابل من الهند، ومنه تحمل على الجبال عبر الصحراء إلى الإسكندرية، ومنها بالبحر والبر توزع تقريبا عبر العالم" (١٤٣). الأمر الذي يظهر أن التجارة الخارجية لمصر لم تتأثر بشكل كبير حتى زمن زيارة مارتن بومجارتن بالتغييرات التي طرأت على حركة التجارة الدولية باكتشاف طريق رأس الرجاء الصالح سنة ١٤٩٨م.

ومن الجدير بالإشارة في هذا المجال أن الفرنسي جان ثينو زار ميناء الطور في شهري يونيو، ويوليو سنة ١٥١٢م وذكر أن السفن التي تحمل العقاقير والتوابل تأتي إلى الميناء، ومنها تنتقل إلى القاهرة والإسكندرية. ووصف ميناء الطور بأنه قرية بائسة لم يستطيعوا أن يجدوا فيها طوال خمسة أيام، لحم أو سمك أو بيض أو شيء منعش، ولكن فقط زيتون وتمر وخبز وفول، وكان به ثلاثمائة منزل وغالبية سكانه من المسيحيين (١٤٤).

وتابع مارتن بومجارتن حديثه عن صعوده ومن معه لجبل سيناء، فذكر أنه نتيجة للعطش، وما فعله مرشديهم لم يستطيعوا البقاء به أكثر، لذا قدموا عبادتهم المتواضعة ثم أخذوا في الهبوط منه، وكان نزولهم أسهل من

(141) Ibid., Op. Cit., p. 450.

(142) Ibid., Op. Cit., Loc..

(143) Ibid., Op. Cit., pp. 450 – 1.

(144) Jean Thenaud, Op. Cit., p. 80.

الصعود. وبعد النزول لمنتصف الجبل، وجدوا نبعا صغيرا صاف وعذب، فارتووا من قلبوهم نتيجة للعطش الذي عانوه. وواصلوا بعد ذلك هبوطهم حتى وصلوا لدير الأربعين قديسا حيث أنعشوا أنفسهم بكوب من الخمر والقليل من الخبز والجبن [١٤٥]. وذكر مارتن بومجارتن عن تاريخ هذا الدير أنه كان ممتلئ لبعض الوقت بالرهبان، ولكن بعض الوثنيين الأجانب الذين اندفعوا داخله قتلوا كل من فيه وكان عددهم أربعين، وهذا العدد هو الذي أعطى للمكان اسمه. وكان الدير مهجورًا وقت زيارة مارتن بومجارتن له، ويوجد به بشكل دائم اثنان من رهبان دير القديسة كاثرين يرسلوا هناك لإجراء الصلوات والطقوس وفقا لنمط اليونانيين [١٤٦].

وسجل لنا مارتن بومجارتن أنه وبالقرب من هذا الدير الصغير، توجد حديقة لطيفة جدا من أشجار الزيتون والتين والرمان واللوز والعديد من أنواع الأشجار الأخرى. وأنهم تابعوا هبوطهم حتى وصلوا تقريبا وقت الغروب لدير القديسة كاثرين الذي دخلوه وهم يشعرون بالتعب والجوع. وفي اليوم التالي ومن تعبهم لم يكونوا يستطيعون الوقوف على أقدامهم، وبحاجة للراحة أكثر من حاجتهم للطعام والشراب [١٤٧].

أما الفرنسي جان ثينو فقد وجد في حديقة دير القديسة كاثرين سنة ١٥١٢م، أشجار توت، وجوز، وتفاح، وكمثرى، وتمر، ومختلف أنواع الفاكهة الطيبة والمتفردة، ووصفها بأنه لا يمكن أن تجد لها مثيلا في أي مكان [١٤٨].

كنيسة دير القديسة كاثرين والقبر:

في اليوم التاسع عشر من أكتوبر، ذهب مارتن بومجارتن ورفقته إلى كنيسة دير القديسة كاثرين، والتي أورد عنها أنها كانت يوما صرحا جميلا، ولكنها الآن مدعومة فقط في قمتها بواسطة أثنى عشرة عمودا مقوسة في الأعلى. والكنيسة تحفظ بقايا أعداد ضخمة من القديسين، ويحتفل اليونانيون بذكراهم مرة كل شهر من العام. ولقد استمعوا لصلوات رهبان تلك الكنيسة الذين توجهوا بعد نهاية القداس لقبر القديسة كاثرين، وهم يرنمون وفقا لطريقتهم اليونانية. حيث بدأ أحدهم أولا وفي يده كتاب، في حين تجمع البقية في خورس (كورس). وكان كل واحد منهم يرتدي ملابسًا وأغطية رؤوس . وصفها مارتن بومجارتن بالقبيحة .، ويحمل في يده شمعة ويحرق البخور، ويقدم تقديسه المتواضع للجثمان، ليتراجعوا بعدها بطريقة مهيبة للغاية. ولقد سمح لهم الرهبان بشرف لمس الجثمان، وجاملوهم

---

[١٤٥] زار جان ثينو الدير، وذكر أنه مقام في المكان الذي دعا فيه موسى ربه لكي ينتصر قومه. انظر:

Jean Thenaud, Op. Cit., p. 77.

(146) Martin Baumgarten, Op. Cit., p. 451.

(147) Ibid., Op. Cit., Loc. Cit.

(148) Jean Thenaud, Op. Cit., p. 77.

بإعطائهم قطعة من الحرير كان الجثمان ملفوفا به [١٤٩]. و بدوره وبعد أروه جثمان القديسة كاثرين، أعطى رهبان الدير لجان ثينو سنة ١٥١٢م قطعة من القطن، من الذي كان جثمانها يلف به، وكان مغموسا في زيت مصابيح الدير [١٥٠].

وتابع مارتن بومجارتن وصفه للدير، فأوضح أن الإمبراطور جستنيان [١٥١] بنى هذا الدير في واد في سفح جبل حوريب، وهو محاط بسور عال. والغرف بداخله منخفضة ومتوسطة للغاية. وهذه الغرف ووفق قوله "كان المسلمون يتجاسرون على تدنيسها وهدمها، ويفعلون ذلك ظنا أنه ما يناسبها. ولقد أخبرنا راهب جليل رمادي الشعر أنه في كل يوم يأتي فوق خمسين من العربان للحصول على مؤن، ولا يرفض طلبهم، ولم يكن الأخوة بأحسن من عبيدهم. وهناك مسجد داخل الدير، حيث يتقابل عدد كبير معا بداخله، محدثين ضوضاء وجلبة لدرجة أن الرهبان المساكين لا يغمض لهم جفن. وكان الشيء الإنساني الوحيد الذي يظهروه أنهم كانوا لا يدخلون كنيسة الأخوة، وباستثناء ذلك كانوا يفعلون كل ما يريدونه، ويتظاهرون بأنهم سادة وحفظة المكان، وهم في الحقيقة محطميه" [١٥٢]. ومما لا شك فيه أن مارتن بومجارتن كان يعني بهذا القول العربان الذين أقاموا حول الدير وبالقرب منه.

مخيم أولاد سعيد بجبل سيناء

(149) Martin Baumgarten, Op. Cit., pp. 451 – 2.

(150) Jean Thenaud, Op. Cit., p.74.

(١٥١) أيد الفرنسي جان ثينو حقيقة قيام الإمبراطور جستنيان الكبير بتأسيس دير القديسة كاثرين بسيناء. انظر:

Jean Thenaud, Op. Cit., p.٧٧.

(152) Martin Baumgarten, Op. Cit., p. 452.

بريشة الرحالة والرسام الإسكتلندي ديفيد روبرتس David Roberts سنة ١٨٣٩م

وعن رهبان الدير ذكر مارتن بومجارتن "وكل رهبان الدير من اليونانيين ويعيشون كما قالوا وفق تعاليم القديس بازيل St. Basil [١٥٣]، وهم فقراء للغاية ويصومون دائما، ولا يأكلون اللحم أبدا، ويرتدون ملابس قبيحة ومهملة، ويبدون كالهياكل العظمية أكثر من كونهم رجال أحياء. وهم لا يعترفون بسيادة البابا، أو أي سلطة دينية أخرى، ولكنهم يحيون بطريقتهم ولهم عاداتهم الخاصة [١٥٤].

الرحيل من دير القديسة كاثرين، والعودة للقاهرة:

بعد أن شاهد مارتن بومجارتن ورفقته كل الأشياء والأماكن المميزة داخل أو حول الدير بدأوا رحلة عودتهم إلى القاهرة. فحزموا أمتعتهم بأسرع ما يستطيعوا، وأخذوها خارج الدير حيث أرسلوها إلى مترجمهم وسائقي جمالهم. بينما قاموا مسرعين بالذهاب إلى حديقة قريبة جدا من الدير، ومروا خلالها، منتهزين فرصة لمعان ضوء القمر طوال الليل. وهناك شاهدوا وفق رواية مارتن بومجارتن مكان دفن ثلاثة آلاف إسرائيلي نزولا على أوامر نبي الله موسى لعبادتهم العجل، وكذلك صورة العجل على صخرة، وذلك في ذكرى العجل الذهبي الذي حرق، والخندق الذي صنع فيه هذا الصنم، والمياه التي ألقى فيها نبي الله موسى رماد العجل المحترق، والحجر المستدير الذي يقال إن موسى قد كسر فوقها قوائم القانون. وبعد مشاهدتهم كل ذلك، ذهبوا مباشرة إلى جمالهم المحملة. وهنا سرق أعرابي معطف أحد صحبتهم، وأوضح لسائق جمالهم أنه لن يعيده إلا بعد دفع ست قطع فضية، كما اضطروا لإيقاف أفواه بقية العصابة بنفس الطريقة. وبعد ذلك ارتقى كل منهم جمله، وساروا في طريقٍ للعودة أكثر وعورة من الذي سافروا عبره قبلا، ولكنه أقصر [١٥٥].

وفي يوم العشرين من أكتوبر، استيقظوا مع شروق الشمس، ومضوا في رحلتهم. وبعد وقت ليس بالطويل دخلوا غابة نخيل البلح التي تحدثوا عنها قبلا، وقابلوا نفس العربان السابقين، فأرضوهم بقليل من النقود. وسرقهما لصين بعد ذلك، وفرا إلى هضبة مجاورة، فأرسلوا ترجمانهم وسائق جمل في أعقابهما. ولكنهما ووفق قوله حرصا على

---

[١٥٣] **القديس بازل(٣٢٩ – ٣٧٩م):** انتقلت الرهبانية المصرية إلى الدولة البيزنطية على يديه، وهو أسقف قيصرية في كبادوكيا، الذي انتشر نظامه، وزاد عدد أتباعه على ثمانين ألف قبل وفاته. ومن الملاحظ أن الديرية البازيلية اتسمت بطابع الزهد والتأمل والعبادة، مع قلة العمل، على عكس ما سارت عليه الديرية في الغرب الأوروبي. راجع: محمود سعيد عمران (دكتور): حضارة أوروبا في العصور الوسطى، الإسكندرية (دار المعرفة الجامعية)، ٢٠١٦م، ص ١٠٢ – ١٠٣؛ إبراهيم سعيد فهيم محمود (دكتور): في حضارة أوروبا في العصور الوسطى، الإسكندرية (دار المعرفة الجامعية)، ٢٠٢١م، ص ٨٧.

[154] Martin Baumgarten, Op. Cit., p. 452.

[155] Ibid., Op. Cit., Loc. Cit.

السماح للصين بالهرب، فباتوا بالكاد يثقون في أي شخص. وبهذا الشكل، اضطروا لتخفيض احتياجاتهم للحد الأدنى، ولم يكن معهم أي شيء، باستثناء خبز أقسى من الحجر، وبعض المياه العذبة التي جلبوها من دير القديسة كاثرين لإنعاش أنفسهم. وقبل التقدم لأكثر من ذلك، انقض عليهم جمع من اللصوص في غسق الليل صاحوا عليهم بصرخة مفزعة، وأحاطوا بترجمانهم، وكرروا صرخاتهم وبطريقتهم البربرية طلبوا منهم نقود. وعندما يئسوا من ذلك، لم يجدوا أمامهم سوى أخذ بعض الخبز الجاف، ثم ذهبوا بعد ما أحدثوه من ضجيج (١٥٦).

وانطلاقا من خبرته في التعامل مع العربان، خصهم مارتن بومجارتن بالقول إنه "ومن المثير للتعجب أن تلك المجموعة المتبربرة التي ليس لديها قانون ولا حكومة، والذين هم فقراء ومتسولين، لا يجرحون ولا يقتلون الذين يقابلونهم، مادام يفعلون ما يريدونه بشكل سلمي. وهم أحرار من كل تبعية، سواء للسلطان، أو الآخرين. وهم كلهم سادة بين أنفسهم، ويحي الواحد منهم الآخر بألقاب التشريف". وبعد أن ابتعد مارتن بومجارتن ورفقته بقليل عن هؤلاء اللصوص جلسوا ينعشوا أجسامهم المجهدة بقليل من النوم، فقد جعلهم اهتزاز الجمال بهم يظنون وفق كلماته أن لحمهم وعظامهم قد ترك أحدهم الآخر، وبخاصة الراهبين الفرانسيسكان الإثنين الذين قال عنهما أنهما كانا يعرفان كيف يحافظان على نظم جماعتهما أكثر من معرفتهما بركوب الجمل. ولم يفت مارتن بومجارتن في ظل تلك الظروف وصف الإبل بنوعيها، أي الجمل بالسنم الواحد، والجمل بالسنمين (١٥٧).

الرجوع للبحر الأحمر والانضمام لقافلة:

استيقظ مارتن بومجارتن ورفقته في اليوم الحادي والعشرين من أكتوبر قبل شروق الشمس، وتركوا جبال سيناء التي وصفها بالمريعة، ووصلوا إلى البحر الأحمر. وهناك تقابلوا مع نفس القافلة التي رافقوها لفترة في رحلة الذهاب لدير القديسة كاثرين، في نفس المكان الذي انفصلوا فيه عنها في السابق. وكانت القافلة محملة بالتوابل الهندية. فذهب عنهم كل خوفهم، عندما وجدوا أنفسهم محصنين بهذا العدد الكبير من الرجال والحيوانات. بيد أن السفر طوال يوم وليلة دون طعام أو راحة أو نوم، جعلهم لا يستطيعون تجنب السقوط من فوق الجمال عند شعورهم بالنوم. لدرجة جعلتهم يتخيلون مشاهدتهم لشخص يمد يده لهم بالطعام والشراب، وهو ما اكتشفوا كونه لا يعدو كونه سراب. وعانوا نفس الصعوبات طوال يومي الثاني والعشرين، والثالث والعشرين من شهر أكتوبر (١٥٨).

ولعل قيمة إشارة مارتن بومجارتن لهذه القافلة التجارية التي رافقوها في جزء من رحلة الذهاب والإياب إلى دير القديسة كاثرين، اظهارها بما لا يدع مجالا للشك، أن حركة التجارة الخارجية لسلطنة المماليك وبخاصة مع

(156) Martin Baumgarten, Op. Cit., pp. 452 – 3.

(157) Ibid., Op. Cit., p. 453.

(158) Ibid., Op. Cit., Loc., Cit.

الهند، كانت لا تزال نشطة بعد حوالي عقد من اكتشاف طريق الرجاء الصالح، وقبل سنتين من نجاح البرتغاليين من تدمير الأسطول المملوكي في البحر الأحمر بعد معركة ديو البحرية.

وأيا كان الأمر، ونحو وقت ظهيرة اليوم الرابع والعشرين من أكتوبر، ووفق ما دونه مارتن بومجارتن، ترك سائق بغلهم القافلة مثل محتال خائن، وقادهم وسط جبال رملية جدباء. وحيث أراحوا أنفسهم وجمالهم، طالبهم بنقود أكثر مما يجب عليهم، وهددهم بتركهم في هذا المكان القفر إن لم يفعلوا. وبعد تفكير، رأوا أنه من الأفضل الدفع له. وبعد كثير من التشاحن، صعدوا فوق جمالهم، وعادوا تحت جنح الليل إلى الخانكة، وهم كوصفه يكاد يغمى عليهم من الجوع وقلة النوم. وبهذا الشكل، أنهوا رحلة العودة من دير القديسة كاثرين في خمسة أيام، والتي أخذت منهم في رحلة الذهاب ثمانية أيام. وفي يوم الخامس والعشرين من أكتوبر، لم يناموا طوال الليل، ولكنهم تناولوا طعاما وفيرًا في الصباح، ثم أجروا بغالا ذهبوا مباشرة بها إلى القاهرة [١٥٩].

القاهرة مرة أخرى:

وسجل مارتن بومجارتن أنهم عندما وصلوا للقاهرة استقبلهم صبية المدينة بنفس الطريقة التي غادروها بها، برميهم ثانية بالقاذورات وقطع الطوب والليمون الفاسد. وتوجهوا لمنزل تغري بردي، حيث استقبلهم هناك ببهجة بالغة التجار البنادقة الذين كانوا قد يأسوا من عودتهم. ولقد استمعوا باهتمام عظيم لرواياتهم عما شاهدوه. وبعد أن أتعبوهم وأجهدوا أنفسهم بتلك القصص، حان وقت نومهم، فتركوهم وذهبوا للتمتع بالنوم والراحة الذي اشتاقت أجسامهم إليه كثيرا [١٦٠].

وفي يوم السادس والعشرين من أكتوبر شاهدوا من نافذتهم زرافة لونها أبيض وبني، قال عنها مارتن بومجارتن إنها أطول مخلوق رأوه على الإطلاق، وأتبع ذلك بوصف مفصل لها. وفي نفس اليوم شاهدوا ثورًا هندي ذكر عنه أنه أقصر، ولكن رأسه أضخم من ثيرانهم في أوروبا. كما أمضوا اليومين السابع والعشرين والثامن والعشرين في قراءة الإنجيل فضلا عن النوم بغرض استجماع قواهم [١٦١].

المماليك في يوميات مارتن بومجارتن:

ويروي مارتن بومجارتن أنهم وبينما كانوا يسيرون على طول الشارع في اليوم التاسع والعشرين من أكتوبر شاهدوا مسلم Saracen (لعله يقصد به مصري مسلم) يبكي بمرارة ويضرب رأسه وصدره، فدفعهم الفضول للتساؤل

(159) Martin Baumgarten, Op. Cit., pp. 453 – 4.

(160) Ibid.,Op. Cit., p. 454.

(161) Ibid., Op. Cit., Loc., Cit.

عن أمره ولما يفعل ذلك. فأخبرهم بأنه دفع مؤخرا مبلغا معتبرا من المال من أجل منزل. وبعدما دفع تكلفة ضخمة من أجل الانتهاء منه وتأسيسه، استبعده مملوك منه بالقوة وضربه لإعجابه بالمنزل. فلأن المماليك ذو سلطة عظيمة في مصر، فهم يستطيعون معاقبته، أو يفعلوا مع المسلمين (يعني المصريين) ما يروق لهم، ولا يسألهم أحد عما يفعلون. ولذلك دفعوه خارج منزله، وامتلكوه، ليعيشوا بداخله لما أرادوا من وقت [١٦٢].

وتابع مارتن بومجارتن وصفه للمماليك وتاريخهم، وطبيعة علاقتهم بالمصريين، فقال إنهم "لا يسمحون للمسلمين (يعني المصريين) بامتطاء صهوة جواد، ولا حمل سلاح داخل المدينة، ولا الحصول على أي شيء إلا برضاهم، كما لو كانوا عبيدهم الحقراء، وكان على المصريين اعطاء المنازل لهم، وتوقيرهم عندما يمرون بهم، وتقبيل ركبهم وأقدامهم. وإذا حدث وسُمح لأي منهم بتقبيل يد مملوك، كان ينظر إلى ذلك على أنه عطف فردي منه. وكان ذلك بلا شك عقاب إلهي للمسلمين، إذ يقال إنهم كانوا في الأزمان السابقة متعطشون للسيادة على المماليك. فعندما أصبح في غير مقدورهم أسرهم، كانوا يشروهم من الأمم الأخرى التي كانت في حرب مع المسلمين. وبعد قليل من امتلاكهم كانوا يجبرونهم على نبذ دينهم، واستخدام محاريثهم، والقيام بمثل تلك الأعمال والكدح. وإذا حدث وانخرط المسلمون في معركة كانوا يستخدموهم للدفاع، ويذوذون بهم من هجمات العداء" [١٦٣].

وواصل مارتن بومجارتن القول "غير أن هؤلاء العبيد المشترون مارسوا شجاعة واضحة في كل الصعاب والكوارث. وعانوا هذا الاستعباد الواقع على أعناقهم، حتى اعتقدوا أن لديهم الأعداد والقائد ما يكفيهم لمحاولة التخلص من الاستعباد وادعاء السيادة. وانتهز أحدهم الفرصة وخطب فيهم طالبا منهم اتباعه، والتحلل من كل ساداتهم. وفي البداية قطعوا رأس الملك مع جميع رجال البلاط، وألقوا جثته على الأسوار. وذهبوا مباشرة بعد ذلك إلى المدينة ودمروا كل شيء بالنيران والسيف، وعاملوا سادتهم القساة المستبدين كما فعلوا بهم. وفي النهاية وبعد أن أشبعوا انتقامهم من هؤلاء، أعطوا مساكن للبقية الأقل منزلة. وجعلوا قائدهم ملكا، وهؤلاء العبيد مماليكا لسيدهم. وبهذه الطريقة كبروا وازدادت قوتهم" [١٦٤].

"وهم جميعا مسيحيون مرتدون تم تعميدهم وهم صغار. لأنه لا يمكن لأحد غير معمد أو مسلم أو يهودي أن يصبح مملوكا. ولكنهم عمدوا أولا، ثم نبذوا لاحقا ايمانهم، وتم ختانهم. وبعد ذلك كان يتم حرق الصليب تحت

(162) Martin Baumgarten, Op. Cit., p. 454.

(163) Ibid., Op. Cit., Loc. Cit.

(164) Ibid., Op. Cit., p. 455.

أقدامهم، كعلامة على أنهم ازدروا دين المسيحية. ومعظم هؤلاء يأتون من روسيا، وألبانيا، وصربيا، وإيطاليا، وإسبانيا، ونادرا ما يأتون من بلدنا الأم ألمانيا" (١٦٥).

وجدير بالذكر أن مارتن بومجارتن وفي حادثة ذات صلة بهذا الأمر، ذكر في مناسبة أخرى أنه قابل في القاهرة راهبا فرانسيسكانيا مرتدا. وتبادل معه الحديث بشأن ردته، فعلم منه أنه كان يعيش في دير الفرانسيسكان في جبل صهيون ببيت المقدس، حتى تحول عن دينه طواعية إلى الإسلام وأصبح مملوكا. وكان رأي مارتن بومجارتن في هذا الأمر أنه إما ضل الطريق، أو أن ما فعله كان بتوجيه شيطاني له (١٦٦).

وحري بالذكر، أن الفرنسي جان ثينو شاهد بدوره في مدينة رشيد سنة ١٥١٢م، يونانيا تحول عن المسيحية إلى الإسلام، حيث تم ختانه واصطحابه إلى المسجد ضمن إجراءات ذلك التحول. كما رأى في ميناء السويس فرنسيا أقام طويلا في السابق في لانجدوك Languedoc، إلى أن تم أسره بواسطة المغاربة في طرابلس الغرب، وتم ختانه وتحوله للإسلام (١٦٧).

أهرامات الجيزة:

وعودة ليوميات الرحلة، ففي الثلاثين من أكتوبر، ووفق رواية مارتن بومجارتن وفي رفقة مسلم مغربي (أندلسي) moor من عبيد تغري بردي لإرشادهم، عبروا النيل لرؤية الأهرامات. وذكر بشأنه أنه "بناء ضخم بنى من أحجار ضخمة مربعة، ورفع ارتفاعا عظيما. ولقد بنى ملوك مصر الأهرام لكي تكون مدفنا لهم، بتكلفة وعمل عظيم. وكان السبب في بنائها بشكل عظيم للغاية، واستخدام الكثير جدا من الأيدي العاملة، هو أنه لا يجب إعطاء الوقت للشعب للتآمر ضد ملوكهم. والأهرامات الثلاثة التي تقف تجاه ليبيا على مبعدة خمسة عشر ميلا من ممفيس التي تسمى الآن القاهرة، وخمسة أميال من النيل، تُعد واحدة من عجائب العالم، لروعتها والفن الذي استخدم في تشييدها. وهي تحدث إعجاباً لا يقاوم في كل من ينظر إليهم. والأكبر منهم بناه الملك Chemmes وهو رباعي. وهو مشيد بأكمله من حجر صلب وقاس ودائم قيل إنه جُلب من مسافة ضخمة من جزيرة العرب. والهرم قطعة مذهلة من العمل، بخاصة في هذا البلد الرملي. وبالأحرى فهو يبدو عملا من أعمال الآلهة أكثر منه من عمل البشر. وتذهب القصة بأن هناك ثلاثمائة وستون ألف رجلا عملوا في غضون عشرين عاما تقريبا في بنائه. ولكن أيا من هؤلاء الملوك الذين صمموا تلك الأهرامات لتكون ضريحا لهم لم يدفن فيها. ومرجع ذلك أن الصعوبة التي تحملها الشعب

(165) Ibid., Op. Cit., Loc. Cit.

(166) Martin Baumgarten, Op. Cit., p. 463.

(167) Jean Thenaud, Op. Cit., pp. 30, 64.

أو طغيان وقسوة الملوك، استفزت أتباعهم للدرجة التي جعلتهم يمزقون أجسادهم لقطع، أو يلقونهم خارج الآثار. ولهذا السبب، تركوا أوامرًا خاصة مع بعض خدمهم لوضع أجسادهم في مكان غامض، ليتجنبوا غضب الشعب (الناس). وهناك هرمان آخران، ولكن أصابهما التلف. ولكن الأضخم من هذه الأهرام لا يزال ضخما، لدرجة أن أقوى رجل إذا ألقى سهما للأمام يصل بالكاد إلى منتصفه، وهي التجربة التي تم اختبارها كثيرا" (١٦٨).

ومما يذكر أنه لم يفت الفرنسي جان ثينو زيارة أهرامات الجيزة هو الآخر، وأشار لبعدها عن القاهرة مسافة فرسخين أي قرابة أحد عشرة كيلومترا. وأن أكبرها بناه خوفو Cheopis، وأنه اشترك في بنائه مائتي ألف رجل على مدى اثنين وعشرين سنة. في حين أورد الحسن بن الوزان عند حديثه عن الجيزة " ويمر من خلال هذه المدينة طريق الأهرامات، التي هي أضرحة ملوك مصر القدامى. ولا يوجد بين الجزيرة والأهرامات سوى صحراء رملية حيث يوجد الكثير من البرك المتشكلة من فيضان النيل. ومع هذا يمكن الذهاب إليها بدون صعوبة كبيرة مع دليل طيب يعرف البلاد بصورة جيدة" (١٦٩).

أيام مارتن بومجارتن الأخيرة بالقاهرة:

واصل مارتن بومجارتن يومياته في القاهرة، وفي اليوم الحادي والثلاثين من أكتوبر، وعندما كانوا يتحدثون مع تاجر إيطالي، رأوا في منزله نوعًا من المخلوقات يشبه القط، ولكنه أكبر. وعندما كان يُضرب بعصا ويغضب يفرغ نوعًا من العطر قيم يوزن بالذهب. هذا النوع يسمى مسك Muscus، لديه كتلة بجوار سرة البطن، تخرج وتعطي رائحة طيبة للغاية، وتقيم على أنها واحدة من أفضل العطور، والإيطاليين يسموها Zibetho، والألمان يسموها Pysen (Pyfen) (١٧٠). ولعل هذا النوع من الحيوانات هو ما نعتقد أنه يسمى قط الزباد، ولاسيما أن التسميات التي أطلقها عليه مارتن بومجارتن، هي أسماء تبدو متحورة عن كلمة مسك، وكلمة زباد.

ويبدو أن هذا الحيوان كان منتشرا بمصر في تلك الآونة، إذ ذكره الحسن بنو الوزان الزياتي باسم القط الذي ينتج الزباد ووصفها بقوله "وهذه القطط وحشية طبعا، وتوجد في غابات اثيوبيا. ويقتنصها التجار وهي صغيرة ثم يربونها في قفص ويغذونها بالحليب وبمغلي النخالة، ويقدمون لها اللحم كذلك. ويستخرج منه الزباد مرتين أو ثلاث مرات في اليوم. والزباد ليس سوى عرق الحيوان. ولهذا يضرب الحيوان بعصا صغيرة كي يضطرب في قفصه ويعرق، وحينئذ يجمع العرق من تحت إبطيه وحالبيه ومن تحت ذيله. ويتكون الزباد من هذا العرق". وفي موضع آخر

---

(168) Martin Baumgarten, Op. Cit., p. 455.

(١٦٩) انظر: الحسن بن الوزان الزياتي: المصدر السابق، ص ٦٠٨. وكذلك:

Jean Thenaud, Op. Cit., p. 53.

(170) Martin Baumgarten, Op. Cit., p. 455.

ذكر أن على طرف الشارع الممتد من باب النصر حتى باب زويلة يقع حي باعة العطور كالزباد والمسك والجاوي [١٧١].

ويختتم مارتن يومياته في القاهرة خلال الأيام الخمسة الأولى من شهر نوفمبر سنة ١٥٠٧م، بقوله إنهم لم يفعلوا شيئا خلالها سوى شراء الأشياء الضرورية لرحلة بيت المقدس، وإعادة كل ما هو غير نافعٍ معهم ويعيق حركتهم إلى البندقية. ومن ثم أجروا بغالا وحزموا ما ظنوا أنه مناسبا لرحلتهم، انتظارًا ليوم الرحيل [١٧٢]. ولعل في ذلك إشارة إلى وجود خدمة شحن الطرود من القاهرة وبالتأكيد عبر ميناء الإسكندرية وسفن البنادقة إلى البندقية، ومن هناك يتم تخزينها حتى يعود المُرسِل إلى البندقية، أو يتم إرسالها إلى موطنه أو إلى من يريد أن تصل إليه.

مغادرة مارتن بومجارتن وصحبته للقاهرة ثانية، والنزول بالخانكة:

وبهذا الشكل، وفي اليوم السادس من شهر نوفمبر (أخطا مارتن بومجارتن أو الناشر وذكره ديسمبر) حصل مارتن بومجارتن ورفاقه على تصريح بالرحيل من تغري بردي كما لو كانوا ينوون العودة لبلادهم، لأن هناك من أُخبرهم سرًا بتخطيطه لشيء ضدهم، وإن كان مارتن بومجارتن لم يخبرنا ماهية هذا الشيء. وأيا ما كان الأمر، وكما يسترسل مارتن بومجارتن، فقد بدأوا رحلة جديدة. إذ غادروا القاهرة، وأتوا إلى الخانكة، حيث حصلوا على راحتهم فيها في منزل صغير بالقرب من قطعة أرض سهلية مع حديقة محاطة بسور، وفيه ناموا وأكلوا، ولم يكن يظللهم سوى السماء [١٧٣].

وصف عملية التفريخ الصناعي للطيور بالخانكة:

وفي الخانكة شاهد مارتن بومجارتن ورفقته فرن مسدود بالكلس والطين، وبداخله اعتاد القائمون عليه وضع بيض أنواع عدة من الطيور مثل الدجاج والإوز واليمام، والذي لم يكن يترك ليفقس بواسطة أمهاته. وإنما كان يخرج في وقت صغير أفراخًا حية صغيرة، وفقا لأنواعه بتأثير من دفء نيران وطين الأفران الذي يوضع فيها. وهذه الأفراخ تعتاد بعد ذلك على متابعة رجل إما ليطعمها أو يبيعها. في حين كان الدجاج الذي يفقس بشكل طبيعي يتبع بعضه البعض. ويتابع مارتن روايته بشأن هذا التفريخ الصناعي، أن على الرغم من أن ذلك يبدو في بعض الأحيان خرافة للبعض، إلا أنه حقيقي بالتأكيد. إذ يوجد أحيانا في بعض هذه الأفران ثلاث آلاف، أو أربع آلاف بيضة من مختلف

---

[١٧١] انظر: الحسن بن الوزان الزياتي: المصدر السابق، ص ٥٨١، ٦٤٥.

[172] Martin Baumgarten, Op. Cit., p. 455.

[173] Ibid., Op. Cit., p. 456.

الأنواع، وكلها تفقس أفراخها بهذه الطريقة. و لا تبدو هذه الحقيقة غريبة لأي شخص يلاحظ الأعداد التي لا تصدق للكتاكيت في مصر [١٧٤].

وكان الألماني أرنولد فون هارف قد ربط مسألة طهو الطباخين في القاهرة لكميات عظيمة من الدجاج المسلوق والمشوي بمسألة التفريخ الصناعي التي ذكر عنها أنها تتم في مواقد مستديرة تشعل تحتها النيران الهادئة فتعمل الحرارة الناجمة عنها مع نيران الجو على عملية التفريخ وفقس البيض بعد ثلاثة أسابيع. ونوه إلى أنه شاهد مثل هذه المواقد في ألمانيا وإسبانيا وشمال أفريقيا. وأتبع بالإشارة لرؤيته أحد باعة الكتاكيت (الصيصان) في القاهرة وكان يبيعها في مكيال خاص، اتسع في مرة ليشمل عشرين كتكوت، وثانية لأربع وعشرين كتكوت وفقا لحجمها. أما الحسن الوزان وعند وصفه للقاهرة، سجل عن هذا النشاط "ويرى الإنسان كثيرا من باعة الكتاكيت يتجولون في المدينة ويبيعونها بالكيل لا بالوحدة حسب عادة البلد، ولهؤلاء الناس أسلوب مدهش لتفقيس الفراخ. وهم يأخذون ألف بيضة أو أكثر ويضعونها جميعا في نوع من أفران متعددة الطوابق. ويكون الطابق العلوي مثقوبا بفتحة. ويوقدون نارًا هادئة تحت هذه الأجهزة. وبعد سبعة أيام تبدأ الفراخ بالتفقيس بأعداد كبيرة. وتجمع هذه الفراخ في أوعية كبيرة وتباع مستخدمين كيلا بدون قعر يوضع في سلة المشتري. ويملأ هذا الكيل بالكتاكيت وعندما تمتلئ ترفع. ويدفع المختصون بتفقيس هذه الفراخ ضريبة عالية للسلطان"[١٧٥].

ولفتت عملية التفريخ الصناعي نظر دومينيكو ترافيزان كذلك، وأنه يتم تفريخ ما بين ثلاثة وأربعة آلاف في الفرن في كل مرة. ونوه سنة ١٥١٢م إلى أنه يتم تناول خمسمائة من الطيور يوميا في البلاط السلطاني، دون بقية أنواع اللحوم الأخرى [١٧٦].

وأيا كان الأمر، فمن المؤكد أن رواية مارتن بومجارتن بهذا الخصوص تكشف عن جانب من جوانب النشاط الاقتصادي لمصر يومذاك، وكون تفريخ وتربية الدجاج من الحرف الرائجة في مصر في ذلك الوقت، وأن المصريين كانوا يقبلون على أكله بكميات كبير استرعت انتباه مارتن بومجارتن، وهو ما تؤكده رواية لابن إياس ضمن حوادث شهر ذي الحجة سنة ٩١٤هـ، ذكر فيها "وفي هذه السنة كثر الموت في الدجاج حتى شح جماعة من الفلاحين من ذلك، وصار يموت منهم في كل يوم ما لا يحصى عددهم" [١٧٧]. وإن كانت تلك الرواية تكشف يا للأسف أن الثروة

---

(174) Martin Baumgarten, Op. Cit., p. 456.

[١٧٥] انظر: الحسن بن الوزان الزياني: المصدر السابق، ص ٥٩٢ – ٥٩٣. وكذلك:

Arnold von Harff, Op. Cit., p. 110.

(176) Domenico Trevisan, Op. Cit., pp. 210 – 11.

[١٧٧] ابن إياس: المصدر السابق، ج ٤، ص ١٤٩.

الداجنة لمصر، تعرضت في العام التالي لرحلة مارتن بومجارتن للنفوق بأعداد كبيرة، إذ يبدو أنه قد أصابها مرضًا دفع بها لهذا المصير.

كذلك تدعم رواية أخري للرحالة الحسن ابن الوزان أو ليون الأفريقي كما يعرفه الأوروبيين رواية مارتن بومجارتن يقول فيها "وكل أقاليم مصر هي عبارة عن سهل خصيب بالغلال والخضر وتملك مراعي ممتازة للمواشي وكمية لا حصر لها من الدجاج والإوز" [١٧٨].

وصف مارتن بومجارتن لمدينة بلبيس، ونموذج للتدهور الخلقي في أخريات العصر المملوكي:

ومهما يكن من أمر، وفي اليوم السابع من شهر نوفمبر غادر مارتن بومجارتن ورفقته الخانكة ووصلوا إلى بلبيس [١٧٩] حيث انضموا لقافلة متجهة إلى دمشق. وفي بلبيس، أورد لنا نموذجا لحالة من التدهور والانحدار الخلقي التي سادت جانب من المجتمع المصري في سنوات الحكم الأخيرة للمماليك. إذ وكما يقول شاهدوا بها قديسا محمديا يجلس بين التلال الرملية عاريا كما ولدته أمه. ويضيف إنهم أُخبروا وسمعوا من سائق بغلهم وفهموا من ترجمانهم بأنه جرت العادة بين المسلمين بتقديس أمثال هؤلاء القديسين المجانين فاقدي العقل. وكذلك تقديم عظيم الاحترام لهؤلاء الذين يتوبون طواعية، وينذرون أنفسهم للفقر، بعد حياة صاخبة مليئة بالفضائح. وهذا النوع من الرجال يُسمح لهم بحرية جامحة وغير محدودة في دخول البيوت للأكل والشرب، والأسوأ من ذلك مجامعة من أرادوا، وإذا نجم عن هذا الجماع طفل، كانوا يعتبرونه كذلك مقدسا. وهم يُشرفون كذلك هؤلاء الرجال كثيرا جدا وهم أحياء، وبعد موتهم يبنون معابد (مقامات) فاخرة تشريفا لهم، ويعتقدون أنه من السعادة والحظ العميم لمس هؤلاء الأشخاص ودفنهم [١٨٠].

وأضاف أنهم سمعوا أن هذا الذي يطلق عليه القديس يثنى عليه بشكل كبير، ويعتبرونه ذو تقوى عظيمة، وفضيلة لا تشوبها شائبة، لأنه لم يدنس نفسه أبدا مع النساء أو الغلمان، ولكن فقط مع الحمير والبغال. وإزاء هذا الهراء والانحلال الخلقي، نجده يشير إلى عدم استطاعتهم الامتناع عن الضحك على مثل هذه القدسية، والبهيمية. وأورد رأيه بالنسبة لهذه الظواهر وما يتخذ ضدها في بلاده بقوله "إنه في قضائنا، يجب أن يعاقب بالحرق حيا، وليس كما يظنون بأنه تقيا مستحقا للمدح. لأن هؤلاء بالأحرى حيوانات في شكل آدمي أكثر منهم رجال" [١٨١].

---

[١٧٨] الحسن ابن الوزان الزياتي: المصدر السابق، ص ٥٦٣.

[١٧٩] ذكر ميشولم بن ميناحيم أنه شاهد في بلبيس ثلاث أسر يهودية من العمال، ولقد استقبلوه وخصصوا له غرفة وقدموا له الطعام، وكانت الغرفة بالقرب من المعبد اليهودي بالمدينة. انظر:

Meshullam Ben R. Menahem, Op. Cit., p. 175.

[180] Martin Baumgarten, Op. Cit., p. 456.

[181] Ibid., Op. Cit., Loc., Cit.

والواقع أن ظاهرة التردي الخلقي لجزء من المجتمع آواخر العصر المملوكي بمصر والاحتفاء ببعض الأشخاص ومنحهم نوع من القدسية لفتت أنظار المعاصرين من مسلمين وأجانب، فحفلت كتاباتهم ببعض الأمثلة عليها.

إذ سجل الفرنسي جان ثينو بدوره سنة ١٥١٢م مشاهدته في مدينة فوة لمن وصفه بقديس محمدي Un Sancton de la loy Mahommetist يعظ في الناس. وبعد انتهاء عظته شاهد المسلمون يلتفون حوله ليقبلوا يده [١٨٢].

كما رصد الإيطالي دومينيكو ترافيزان سنة ١٥١٢م في القاهرة، وجود بعض المخابيل في القاهرة الذين كانوا يعتبرون مقدسين يسيرون في المدينة عرايا كما خرجوا من بطون أمهاتهم. وكانوا يأخذون من المحال ما يحتاجونه لمعيشتهم، دون أن يرفض أحد ذلك، لأنهم كانوا يحظون باحترام خاص في نظر الكثير من الناس [١٨٣].

والواقع أن ابن إياس تناول مسألة تبجيل بعض الأشخاص وإقامة الاحتفالات بموالدهم، ما يتماشى مع بعض ما أورده مارتن بومجارتن. فكان مما ذكره ضمن أحداث شهر المحرم لسنة ٩١٣هـ، وهي السنة التي زار فيها مارتن بومجارتن مصر "وفي حادي عشرة كان ببولاق ليلة حافلة بسبب وقت سيدي إسماعيل الإنبابي رحمة الله عليه، فضربت في تلك الجزيرة التي تجاه بولاق نحو خمسمائة خيمة، أو صنعوا سوقا بدكاكين وخرج الناس في الفتك والفرجه عن الحد، وأقاموا هناك ليالي متوالية، وموجب ذلك أن كان الرخاء والأمن موجودين. وفي عقيب ذلك عُمل مولد الشيخ سويدان المجذوب في مدرسة ابن الزمن التي ببولاق عند الرصيف، فكان له مولد حافل، وضربت هناك الخيام الكثيرة عند المدرسة، لكن حدث تلك الليلة حادثة مهولة، وهو أن امرأة طبخت على شاطئ البحر، فطارت منها شرارة فتعلقت بمركب هناك كان فيها كتان فعملت فيه النار، فاخترقت المعصرة ونهب ما فيها من قصب وسكر وعسل، وحصل للناس تلك الليلة غاية النكد، ولولا لطف الله تعالى ثم بركة الشيخ سويدان لاحترقت تلك الأماكن التي هناك عن آخرها" [١٨٤]. وفي شهر صفر سنة ٩١٥هـ، "وفي يوم الأربعاء حادي عشرة كانت ليلة سيدي إسماعيل الإنبابي، وكانت ليلة حافلة، وضرب في الجزيرة التي تجاه بولاق نحو من خمسمائة خيمة، وخرج الناس في القصف والفرجة عن الحد" [١٨٥].

---

(182) Jean Thenaud, Op. Cit., p. 33.

(183) Domenico Trevisan, Op. Cit., p. 213.

[١٨٤] ابن إياس: المصدر السابق، ج ٤، ص ١١٤.

[١٨٥] نفسه: المصدر السابق، ج ٤، ص ١٥٢.

وبالرجوع ليوميات الرحلة، سجل مارتن بومجارتن أنه خلال ليل السابع من شهر نوفمبر، سُمع صياحًا عظيمًا واضطرابًا خوفا من اللصوص، فيما بين المتواجدين في الجزء الخارجي من القافلة التي انضموا إليها. وتمثل ما ألحقه اللصوص من أذى لهم في سرقة بعض الأشياء الصغيرة غير ذات قيمة والفرار بها. وتناول بعد ذلك الحديث عن المكان الذي عسكروا فيه، وكان يحيط به غابة من شجر الجميز من جانب، وغدير مياه صافية من الجانب الآخر. و من فوقه استمتعوا بمشهدٍ جميلٍ للريف، وكان يومها مثمرا بوفرة للحصاد الثاني (١٨٦). وبالتأكيد كان مشهد وظاهرة الحصاد للمحاصيل مرتين في العام الواحد، أمرا غير مألوف للأوروبيين لاختلاف طبيعة مناخ بلدانهم عن جو مصر والشرق.

وبقي مارتن بومجارتن ورفقته في بلبيس لبعض وقت اليوم الثامن من شهر نوفمبر في انتظار المزيد من الناس القادمين من أجزاء متعددة لزيادة عدد أفراد القافلة. وعندما اكتمل العدد تحركوا على الفور بالقافلة في صحبة نحو أربعمائة مسلح، وبالرغم من ذلك فقد هاجمهم العربان ثلاث مرات ذلك اليوم، والذين ذكر عنهم أنه يبدو أن وظيفتهم اليومية هي اجتياح البلد بسرقاتهم. بيد أنه وكما يذكر، قام المماليك من فوق ظهور خيولهم، ورماة السهام على أقدامهم، بمجرد استشعارهم للخطر بالوقوف أمامهم بكل الطرق، ولذلك ساروا بالبضائع والأمتعة بسرعة تحت حمايتهم (١٨٧).

وفي مساء ذلك اليوم وصلوا إلى بركة مياه طينية، اضطروا للشرب منها بجانب البهائم. وهناك شاهدوا وفق ما ذكر أحد هؤلاء القديسين المسلمين، في ملابس ملونة وغطاء من القش على رأسه، ويحمل في يده علما أحمر عليه اسم السلطان، ودعا المسلمين للغناء معه وكانت كلمات الأغنية تقريبا هي نفسها وهي: هالا هالا بالله بالله هالا هالا بالله بالله (١٨٨).

(186) Martin Baumgarten, Op. Cit., p. ٤٥٦.

(187) Ibid., Op. Cit., p. 457.

(188) Ibid., Op. Cit., Loc. Cit.

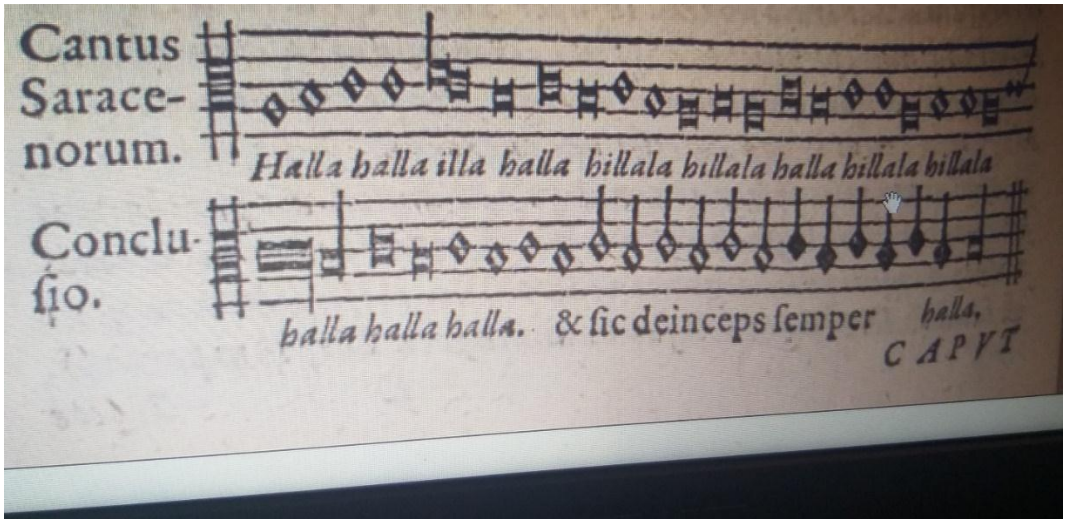

كلمات الأنشودة بالموسيقي كما وردت بالنسخة اللاتينية ليوميات مارتن بومجارتن [١٨٩]

<u>الوصول للصالحية، ومنها إلى قطية والسفر عبر صحراء شمال سيناء:</u>

تابع مارتن بومجارتن يومياته في مصر، ففي اليوم التاسع من نوفمبر، تحركوا من جوار البركة الطينية التي أشار إليها، ووصلوا إلى قرية تسمى الصالحية Salheyo، وبالقرب منها حيث وُجدت حديقة أو بالأحرى بستان، استراحوا لفترة. وهناك جلب لهم السكان الشمام والخيار والبلح، وبعض الفراريج التي اشتروها بتكلفة صغيرة، كما ملئوا قواريرهم من بركة صغيرة، ثم رحلوا عن الصالحية. ولقد سافروا طوال الليل، وحوالي الفجر توقفوا ليأخذوا بعض الراحة على أرض مرتفعة [١٩٠].

ولما كان ميشولم بن ميناحيم قد وصف الصالحية Salahia سنة ١٤٨١م بالمكان الصغير، وأنه وجب على الأجانب واليهود والأتراك دفع مبلغ من المال للسكان المعينين من قبل السلطان لحراسة الطرق والمسافرين عند عبورها [١٩١]، وهو الأمر الذي لم يشر إليه مارتن بومجارتن، فذلك يظهر أن هذ المكس لم يكن مطبقًا زمانه، أو أنه

(189) Martini à Bavmgarten, Equitis Germani Nobilisimi Fortisimi: Peregrinatio in Ægyptum, Arabiam, Palæstinam & Syriam, stvdio et opera M. Christophori Donavéri, Ratisponensis, præfixa estequitis vita, eodem auctore, unà cum duplici, rerum, verborum, indice, Noribergæ, MDXCIV, p. 74.

(190) Martin Baumgarten, Op. Cit., p. 457.

(191) Meshullam Ben R. Menahem, Op. Cit., pp. 176 – 7.

لم يدفعه على أقل تقدير. ولقد نزل الربي الإيطالي عوباديا جاريه دا بيرتينورو بها أيضا انتظارا لقافلة يسافروا معها عبر سيناء (١٩٢).

وبالرجوع لمارتن بومجارتن ورفقته ففي اليوم العاشر من نوفمبر، وبعدما سافروا لبعض الوقت عبر هضاب ورمال وصلوا إلى مدينة صغيرة تسمى قطية Cattia، بالقرب منها غابة لنخيل التمر، حيث بقوا بها طوال الليل. وعندما رآهم عددًا ضخما من العربان اللصوص، وخشية القتال بينهم وبين المماليك، فروا دون إحداث أي عنف بهم. وفي اليوم التالي (الحادي عشر من شهر نوفمبر)، والليلة التي تبعته سافروا خلال رمال عميقة، لم يشاهدوا شيئا أثناءها سوى السماء أعلاهم، والرمال أسفلهم. في الوقت الذي لم يكن هناك أي مزروعات، أو شجر أو على الأقل عشب حسب قوله (١٩٣). ولقد أكد ذلك الربي الإيطالي عوباديا جاريه دا بيرتينورو الذي ذكر أن قطية Katiah مدينة تقع في منتصف البرية، ولا يرى فيها أي شيء أخضر باستثناء أشجار نخيل التمر (١٩٤).

وعند شروق شمس اليوم الثاني عشر من نوفمبر وصلوا إلى كوخ منعزل قديم توقفوا به لمدة ساعتين، ثم واصلوا بعدها رحلتهم عبر الرمال جهة البحر. وليس ببعيد عن ذلك الكوخ شاهدوا ما يزيد عن عشرة آلاف جثة للخراف والماعز والحمير ومخلوقات أخرى ملقاة على الأرض متعفنة ونصفها مأكول، وكانت رائحتها لا تطاق، لدرجة أنهم اضطروا للإسراع بأسرع ما يمكنهم للابتعاد عنها. وأخبرنا مارتن بومجارتن أن السبب في وجودها بهذا الشكل، يرجع إلى أن أحد الوزراء الرئيسيين للسلطان، كان قد أرسله إلى فلسطين Judea لجمع الضرائب، ووجد أنه من الصعوبة جمع المال، فساق قطعان الفقراء رغبة منه في أخذها كلها للقاهرة وتقديمها للسلطان. ولكنه وبينما كان يسير بها عبر الصحراء نفقت كلها لعدم وجود مياه أو مراعي. ولقد تفهم السلطان ذلك وأدرك بينه وبين نفسه درجة السلطة العظيمة التي وصل إليها هذا الأمير بين المماليك، وبدأ يتشكك في أنه إذا وصل سالما إلى القاهرة فسوف يسلبه العرش والحياة. ولذلك وقبل وصوله للمدينة أرسل له شخصا لإطرائه مع ثوب مطرز دلالة على ابتهاجه بعودته سالما. وبعد ذلك أرسل له مشروبا مسمما توفي بمجرد ما شربه. وبذلك تخلص السلطان من حسده وشكه، وفي نفس الوقت ملأ خزانته (١٩٥).

وهذه الرواية التي أوردها مارتن بومجارتن مع بساطتها وإن كانت تنبئ عن شيء، إنما كانت تعبر عن المظالم الاجتماعية والمالية التي سادت الدولة المملوكية يومها تجاه رعاياها، انعكاسا للتحولات الناجمة عن تحول

(192) Obadiah Jaré da Bertinoro, Op. Cit., p. 231.

(193) Martin Baumgarten, Op. Cit., p. 457.

(194) Obadiah Jaré da Bertinoro, Op. Cit., pp. 231 –2.

(195) Martin Baumgarten, Op. Cit., pp. 457 – 458.

طريق التجارة العالمية. كما رصدت في الوقت نفسه طبيعة الأوضاع السياسية الداخلية التي كانت تمر بها دولة المماليك في العقد الأخير من عمرها من بغض وحسد وصراع حول السلطة وكرسي العرش بين المراء المماليك، وهو الأمر الذي ظهرت نتائجه بعد ذلك بعقد من الزمن من خيانة بعض الأمراء المماليك لسلاطينهم طمعا في المال والمناصب مما مكن الدولة العثمانية من إسقاط السلطنة المملوكية.

وأيا كان الأمر، لم يلبث مارتن بومجارتن أن كشف لنا عن جانب آخر من الصناعات المملوكية، وأحد مصادر ثراء الخزانة السلطانية. إذ أشار أنهم وبعد ذهابهم بعيدا عن ذلك العفن الذي سببته الجثث المتحللة، وصلوا إلى أحد الخلجان. وعلى امتداد الساحل كانت هناك أماكن لصناعة الملح. وأوضح مارتن بومجارتن الكيفية التي كانت تتم بها صناعته، بأنه عندما كان مياه البحر تبطئ، كانت تغطي الأراضي المجاورة المنخفضة، وتملأ الخنادق بالمياه المالحة. وعند انحسار البحر، كانت تلك المياه تتحول لملح بقوة حرارة الشمس. ونوه أن هذه الأماكن كانت تمثل حسابًا ضخمًا للسلطان، لأنها تُدخل له مئة ألف دينار أشرفي سنويا [١٩٦].

وجدير بالذكر أن الربي الإيطالي عوباديا جاريه دا بيرتينورو أوضح أن البرية بين مصر وفلسطين ليست واسعة. وبعد كل مسيرة يوم، توجد محطات استراحة مقامة خصيصا للمسافرين وجمالهم. وهي رملية كلية ولا توجد فيها أية نباتات باستثناء نخيل التمر في بعض المواضع المعروفة جيدا. وتتوفر المياه بعد كل يومين سفر، وأحيانا بعد كل يوم، ولكنها مالحة قليلا [١٩٧].

سافر مارتن بومجارتن ورفقته طوال يوم الثاني عشر من نوفمبر، وحوالي منتصف الليل، وصلوا إلى قرية تسمى العريش Laritsch، حيث أراحوا أنفسهم لبعض الوقت. وواصلوا السير بعد ذلك فوصلوا لخليج آخر، حيث أمرهم حراسهم المماليك بأن يدفع كل فرد منهم وفي القافلة ديناراً أشرفيا مقابل حراستهم. وبعد أن أخذوا المبلغ من الجميع، رفض مارتن بومجارتن ورفقته الدفع، وطلبوا من ترجمانهم إخبار المماليك أنهم دفعوا لسائق بغالهم، وأخذوا منه اتفاقا مكتوبا بخط يده بأنهم لن يدفعوا شيئا من جيوبهم لهذا الأمر. وعندما أدرك المماليك أننا لا نفهم لغتهم، أحاطوا بسائق البغل وهددوه، فدفع لهم على غير رغبته قطعة الذهب التي طلبوها [١٩٨].

(196) Ibid., Op. Cit., p. 458.

(197) Obadiah Jaré da Bertinoro, Op. Cit., p. 232.

(198) Martin Baumgarten, Op. Cit., p. 458.

ومهما كان الأمر، فعند شروق شمس اليوم الرابع عشر من نوفمبر سنة ١٥٠٧م، اقتربوا من غزة إحدى المدن الخمسة الرئيسة في فلسطين كما ذكر مارتن بومجارتن [١٩٩].

بقي القول، إنه وفي غمار الحديث عن الطوائف المسيحية في بيت المقدس وفيما له صلة بالاقتصاد المملوكي في نهايات الحكم المملوكي، ذكر مارتن بومجارتن أنه تم إخباره بأنه وجب على طائفة الفرنسيسكان دفع مبلغا سنويا للسلطان مقداره ألف دوكات سنويا [٢٠٠]، وهو الأمر الذي كان يمثل بالطبع جانبا من دخل الخزانة السلطانية في ظل حالة الضعف الاقتصادي التي أصابتها بتحول طريق التجارة العالمي عن مصر بعد اكتشاف البرتغاليين لطريق رأس الرجاء الصالح.

الرحلة إلى فلسطين وبلاد الشام والعودة إلى أوروبا:

عند هذا الحد انتهت يوميات رحلة مارتن بومجارتن ورفيقيه في مصر، لتبدأ مرحلة جديدة من يوميات رحلتهم في فلسطين وبلاد الشام في الفترة ما بين الرابع عشر من نوفمبر سنة ١٥٠٧م وحتى الخامس من فبراير سنة ١٥٠٨م، ومن بعدها وبداية من السادس من فبراير سنة ١٥٠٨م رحلة العودة من ميناء طرابلس إلى البندقية،زاروا ومروا خلالها بجزر قبرص، ورودوس، وكانديا، وكورفو، وغيرهم العديد من الجزر والموانئ حتى وصلوا البندقية في الثامن من شهر يوليو سنة ١٥٠٨م، حيث أمضوا بها قرابة ثلاثة أسابيع غادروها بعدها في التاسع والعشرين من يوليو إلى مدينتهم كويستين، فوصلوها شاكرين للرب، وحيث استقبلهم أهلها بشكل مؤثر، بعد وصولهم سالمين من رحلتهم التي واجهوا خلالها الكثير من الأخطار في البر والبحر [٢٠١].

(199) Ibid., Op. Cit., Loc. Cit.

(200) Ibid., Op. Cit., p. 464.

(201) Ibid., Op. Cit., pp. 458, 488 – 490, 495, 499 – 502.

الخاتمة:

من اللافت للنظر، أن علاقة مارتن بمصر بدأت قبل أن تطأ أقدامه أرضها، فقد كان على متن السفينة التي عاد عليها تغري بردي الترجمان من سفارته التي أوفده بها السلطان قانصوه الغوري لأوروبا بداية من ميناء بولا، فانفرد بتفاصيل عودته، وظروف استقباله في الإسكندرية، ورحلته عبر النيل من رشيد إلى القاهرة، والاحتفاء بعودته إلى قصره. في حين جاءت بعض المعلومات الأخرى فيما يتصل بوصف قصره، وبعضا من جوانب شخصيته، وحياته الشخصية والاجتماعية، ودوره في الإدارة المملوكية مكملة ومقاربة لبعض المصادر الأوروبية الأخرى بشأن هذا الرجل. والواقع أن رواية مارتن بومجارتن تضفي عليه قيمة مضافة، لم تقدر لأي رحالة آخر.

والواقع أن رواية مارتن بومجارتن أو بالأحرى يوميات زيارته للقاهرة ومجاوراتها، والمنطقة الشرقية وسيناء سنة ١٥٠٧م، تُعد في معظمها، رصدا أمينا ودقيقا لمختلف أحوالها في مرحلة فاصلة من تاريخها، إذ جاءت بعد عقد من اكتشاف طريق رأس الرجاء الصالح بما يعنيه ذلك من تحول طريق التجارة العالمية عنها، وما استتبعه ذلك من تأثيرات اقتصادية، وقبل عقدٍ من فصل الختام لهذا التأثير الجلي على مصر. ونعني بذلك ضعف سلطنة المماليك اقتصاديا وسياسيا وعسكريا، الأمر الذي مكن الأتراك من احتلال المحروسة، واستبدادهم بشأنها أربعة قرون من عمر الزمان.

وانعكاسا لهذه المتغيرات، فعلى سبيل المثال لا الحصر، سجلت اليوميات اضطراب الأمن الداخلي في مصر في المنطقة الشرقية، وسيناء بسبب العربان. وحالة الصراع المجتمعي، وما كان المماليك يمارسونه من مظالم ضد المصريين في أواخر حقبة الحكم المملوكي. واختفاء حديقة البلسم في قرية المطرية وجفاف البئر المجاورة التي كانت تستخدم لسقياها، والذي كان نتيجة الصراع الداخلي بين المماليك. فضلا عن التفاوت الاجتماعي الكبير بين علية القوم وعامتهم في تلك الفترة الزمنية.

وفي المجال العسكري، تميزت مشاهدات مارتن بومجارتن في القاهرة بوصف فريد لاستعراض عسكري من حوالي ستين ألفا من المماليك حول السلطان قانصوه الغوري، وسباقات وألعاب فروسية للمماليك زمنه، قل أن نجد له نظيرا في كتابات الرحالة الأوروبيين. وهي تظهر بما لا يدع مجالا للشك، المستوى والبراعة العسكرية في الرماية والفروسية التي حازها جند المماليك آنذاك، واستعداداتهم لمواجهة أي خطر.

وفيما يتعلق بمجال العلاقات الخارجية رصدت اليوميات عودة سفارة كبير التراجمة تغري بردي من سفارته إلى أوروبا، وسفارة السلطان العثماني بايزيد الثاني إلى السلطان قانصوه الغوري، وكذلك سفارة الشاه إسماعيل الصفوي الفارسي له، والألقاب الرسمية للسلطان قانصوه الغوري في مراسلاته الرسمية مع الأوروبيين.

وختاما، فقد جاءت رحلة هذا النمساوي من أصل ألماني في القاهرة وسيناء ثرية بتفاصيلها، ومشاهداتها، دقيقة في كلماتها، غنية في مختلف أبعادها وعناصرها. وكان البداية في القاهرة بالوصول لميناء بولاق مدخل القاهرة النهري، ومحل إقامته بالقاهرة، والحديث عن شخصية كبير التراجمة تغري بردي الترجمان، وقصره حيث كان يقيم زوار القاهرة من الأوروبيين، وبعض تفاصيل حياته كمثال للحياة الاجتماعية لعلية القوم من المماليك. وتابعناه في تحركاته طولا وعرضا في القاهرة، فعرضنا لجميع مشاهداته وملاحظاته في القاهرة، من مظاهر الحياة الاجتماعية للمجتمع بشقيه من علية القوم وعامتهم من مسكن ومطعم ومشرب. ومدى ما تمتعت به المرأة من حرية، وملبسها، ودورها داخل الأسرة. والتركيبة السكانية لسكانها من علية القوم بداية من السلطان المملوكي رأس الدولة، والخليفة العباسي، وأعيان وفرسان المماليك، وأثرياء المصريين، ودورهم المجتمعي في أعمال الخير من نظافة الشوارع ورشها بالمياه وتقديم الماء بالمجان، والتكفل بعمارة المساجد والمآذن المتهالكة. وكذلك رجال الدين المسلمين وعامة المصريين، ومن هم بلا مأوى من المشردين، والمقيمين بالمدينة من المغاربة والأوروبيين. وتنوع الانتماء الديني لسكانها والمقيمين فيها ما بين الإسلام والمسيحية واليهودية. وأوضاعها العسكرية، وأحوالها الاقتصادية كالتجارة النهرية. وبعض الحرف والمهن التي كان يمتهنها أهل القاهرة كالطبخ والسقاية، وأنواع العملات التي ساد التعامل بها يومها. وطبوغرافية القاهرة وأسوارها، وشوارعها الضيقة المسقوفة، وقصورها المنيفة، ومنازلها البسيطة، وألوف مساجدها العامرة، وأسبلتها الوقفية المتناثرة، وأبرز معالمها كالقلعة. ووصف السلطان قانصوه الغوري الجالس على عرش السلطنة بها يومها، كما انفرد من بين كتب الرحلة بتسجيل ألقابه في الوثائق الرسمية، وما شهده من استعراض عسكري مملوكي في حضوره في ميدانها، وتجديده لقصره الكبير، واستخدامه لرخام كنيسة بيت لحم في ذلك. كما رصد أثناء وجوده في الشام أمر سفارة الشاه إسماعيل الصفوي التي أرسلها للسلطان قانصوه الغوري بالقاهرة زمن الزيارة. كما أورد لنا تفصيلات قيمة عن قرية المطرية وحديقة البلسم السلطانية وحالها وقت زيارته. ومنطقة الخانكة، وكونها موقع تجمع القوافل المتجهة إلى شبه جزيرة سيناء، ومركز للتفريخ الصناعي للطيور الداجنة، وسجل لنا أحداث السلب والنهب التي كان يتعرض لها المسافرون وأهل البلد على أيدي العربان في المنطقة الشرقية من مصر، وشبه جزيرة سيناء في تلك المرحلة الزمنية. ودون لنا مراحل رحلة المسافر والمتاعب والصعوبات التي يلاقيها المتجه إلى دير القديس كاثرين، منذ أن يغادر هذا المسافر القاهرة حتى وصوله إلى الدير. ووصف لنا دير القديسة كاثرين ورهبانه والعربان المقيمين حوله، وأبرز مزاراته المسيحية والمنطقة المحيطة به، وحديقة الدير وأشجارها المثمرة. وبالإضافة للمزارات المسيحية، وصف المسجد الموجود بالقرب من المكان الذي تجلى الله فيه لسيدنا موسى، والمسجد الموجود داخل دير القديسة كاثرين، والصعوبات التي واجهوها على يد العربان هناك وفي صعود جبل سيناء. وبين المتاعب التي كان يتعرض لها مسافر الصحراء من جوع وعطش وشرود وهجمات اللصوص، وسلب العربان والإجهاد ورؤية السراب. كما وصف ميناء الطور ودوره في تجارة مصر الخارجية. ورافق وصحبته إحدى تلك القوافل

التجارية خلال رحلة الذهاب والعودة ما بين القاهرة ودير القديسة كاثرين. كذلك خصص مارتن بومجارتن بعض الفقرات عن المماليك وبلدانهم الأصلية، وتاريخهم وسلوكياتهم في المجتمع المصري. كما زار منطقة الأهرامات ووصفها في آخر أيام اقامته بالقاهرة. ولم يفته كذلك تسجيل أنواع بعض الحيوانات التي شهدها في القاهرة بصفة خاصة، ومصر بصفة عامة المعروفة له منها وغير المعروف، وبخاصة قط الزباد. كذلك رصد لنا نموذجا لظاهرة التردي الخلقي لجزء من المجتمع أواخر العصر المملوكي في مدينة بلبيس. وسجل أنها نقطة لتجمع القوافل، ولفت نظره هناك حصاد المزارعين لمحصولهم السنوي الثاني. ووصف لنا بعدها الصالحية، وتابع بالحديث عن قطيا، والعريش التي كانت النقطة الأخيرة له في مصر قبل دخوله فلسطين. وكان من أبرز ما سجله عن النشاط الاقتصادي في شمال سيناء وجود عدد كبير من الملاحات لصناعة الملح التي تشكل مصدر دخل عظيم لسلطان مصر.

ولا يبق سوى القول أن يوميات مارتن بومجارتن وكما كشفنا من خلال استعراضنا لما حوته من معلومات، تمثل وثيقة تاريخية ومصدرا موثوقا من الدرجة الأولى، وشهادة قيمة لشاهد عيان للقاهرة ومجاوراتها، والمنطقة الشرقية وسيناء وأحوالهم مطلع القرن السادس عشر الميلادي، وتمكننا من سد الفجوة المعرفية التاريخية عن مصر في تلك الفترة التي نفتقد فيها لوفرة المصادر العربية المعاصرة عنها.

مصادر ومراجع البحث

أولا: المصادر الأوروبية

Arnold von Harff,

The Pilgrimage of Arnold von Harff. Knight, from Cologne, through Italy, Syria, Egypt, Arabia, Ethiopia, Nubia, Palestine, Turky, France and Spain, which he Accomplished in the Years 1496 to 1499, translated from the German and edited with notes and an introduction by. Malcolm Lettes, F. S. A., London. 1946.

Bernard de Breydenbach,

Les Saintes Pérégrinationes de Bernard de Breydenbach (1483), texte et traduction annotée par le Père F. Larrivaz S. J. Extraits relatifs à l`Egypte suivants l` edition de 1490, Le Caire, 1904.

Domenico Trevisan,

La Relation de l` Ambassade de Domenico Trevisan auprès du Soudan d` Egypte 1512, publié et annoté par Ch. Schefer, Membre de l` Institut, dans. Recueil de Voyages et de Documents pour servir à l`Histoire de la Géographie depuis le XIII^{e} jusque` à la fin du XVI^{e} Siècle, sous la direction de MM. Ch. Schefer, et Henri Cordier, tome. V., Paris, MDCCC XLXXIV.

Felix Fabri,

Le Voyage en Egypte de Félix Fabri, 1483, traduit du Latin et de l` Allemand par le R. P. Jacques Masson S. J., publication de l` Institut Français d` Archéologie Orientale du Caire, 1975.

Francesco Suriano,

Treatise on the Holy Land, translated from the Italian by. Theophilus Bellorini, and Eugene Hoade with a preface and notes by. Bellarmino Bagatti, Jerusalem, 1949.

Jean Thenaud,

Le Voyage d` Outremer (Egypte, Mont Sinay, Palestine) de Jean Thenaud Gardien du Couvent des Cordeliers d` Angoulème, 1512, publié et annoté par Ch.

Schefer, Membre de l` Institut, dans. Recueil de Voyages et de Documents pour servir à l`Histoire de la Géographie depuis le XIII^{e} jusque` à la fin du XVI^{e} Siècle, sous la direction de MM. Ch. Schefer, et Henri Cordier, tome. V., Paris, MDCCC XLXXIV.

Martin Baumgartin,

The Travels of Martin Baumgatin a Noble Man of Germany through Egypt, Arabia, Palestine, and Syria in Three Books, to which is prefixed the Life of the Author, translated, and corrected from the Latin to English by. Joseph Scaliger, in. a Collection of Voyages and Travels, edited by Awnsham and John Churchill, 4 volumes, London, 1704. vol I, pp. 425 – 502.

Martini à Bavmgarten,

Equitis Germani Nobilisimi Fortisimi: Peregrinatio in Ægyptum, Arabiam, Palæstinam & Syriam, stvdio et opera M. Christophori Donavéri, Ratisponensis, præfixa estequitis vita, eodem auctore, unà cum duplici, rerum, verborum, indice, Noribergæ, MDXCIV.

Meshullam Ben R. Menahem,

The Travel of Rabbie Meshullam Ben R. Menahem of Volterra, in. Jewish Travvellers, edited, with an introduction, by Elkan Nathan Adler, London, 1930.

Michele Amari (ed.),

I Diplomi Arabi del R. Archivio Fiorentino, Testo Originale con la Traduzione Letterale e Illustrazioni di Michele Amari, Firenze, MDCCCLXIII.

Obadiah Jaré da Bertinoro,

The Letters of Obadiah Jaré da Bertinoro, in. Jewish Travellers, edited, with an introduction, by Elkan Nathan Adler, London, 1930.

Pedro Mártir de Angleria,

Una empbajada de los Reyes Católicos a Egipto (Segŭ la “Legatio Babylonica” y el “Opus Epistolarum” de Pedro Mártir de Angleria), traducción, prologo y notas de Luis García, Valladolid, 1947.

ثانيا: المصادر العربية

ابن إياس (أبو البركات محمد بن أحمد بن إياس الحنفي (ت ٩٢٣هـ/ ١٥٢٣م):

بدائع الزهور في وقائع الدهور، حققها وكتب لها المقدمة والفهارس محمد مصطفى، الجزء الرابع من سنة ٩٠٦هـ إلى سنة ٩٢١هـ، ١٥٠١م إلى ١٥١٥م، الجزء الخامس من سنة ٩٢٢هـ – ٩٢٨هـ (١٥١٦ – ١٥٢٢م)، القاهرة (الهيئة المصرية العامة للكتاب)، ١٤٠٤ هـ/ ١٩٨٤م.

الحسن بن محمد الوزان الزياتي المعروف بليو الإفريقي (ت حوالي ٩٥٧ هـ/ ١٥٥٠م):

وصف إفريقيا، ألفه بالإيطالية جان ليون الأفريقي (وهو الحسن بن محمد الوزان الزياتي)، وترجمه من الإيطالية إلى الفرنسية ترجمة جديدة آ. إيبولار، وترجمه من هذه الترجمة الفرنسية إلى العربية الدكتور عبد الرحمن حميدة، وراجعه الدكتور علي عبد الواحد، القاهرة (الهيئة العامة للكتاب) ٢٠٠٥م.

ثالثا: المراجع الأوروبية

Bacharach, J. L.,

The Dinar versus the Ducat, in. International Journal of Middle East, vol, 4, 1973.

John Wansbrough,

A Mamluk Ambassador to Venice in 913 / 1507, in. Bulletin of School of Oriental and African Studies, University of London, vol. XXVI, part. 3, 1963.

رابعا: المراجع العربية

إبراهيم سعيد فهيم محمود (دكتور):

١- العالم العربي في نظر الرحالة الأوروبيين: مصنف آل أدورني كمصدر أوروبي عن تونس في النصف الثاني من القرن ١٥م (دراسة مقارنة)، بحث ضمن أبحاث ندوة "أضواء جديدة على مصادر تاريخ"، منشورات اتحاد المؤرخين العرب بالقاهرة، مجلة حصاد، العدد ٦، القاهرة، ١٩٩٨م. وأعيد نشره في بحوث كتاب بعنوان: إبراهيم سعيد فهيم محمود (دكتور): دراسات في تاريخ العصور الوسطى حضارتها، الإسكندرية (دار المعرفة الجامعية)، ٢٠٠٦م.

٢- حركة الحج الأوروبي إلى الأماكن المقدسة في الشرق الأدنى الإسلامي (١٢٩١ – ١٥١٧م / ٦٩٠ – ٩٢٣هـ)، ٢ جزء، الإسكندرية (دار المعرفة الجامعية) ٢٠٠٧ – ٢٠٠٨م، وأعيد طبع الجزء الأول سنة ٢٠١٩م.

٣- سيرة أوروبي في البلاط المملوكي: تغري بردي الترجمان ودوره في العلاقات المملوكية الأوروبية ١٤٨١ – ١٥١١م، بحث ألقي بندوة الأستاذ الدكتور السيد عبد العزيز سالم (٥ نوفمبر ٢٠٠٧م – كلية الآداب جامعة الإسكندرية)، ونشر ضمن أبحاث الندوة بمطبوعات مجلة كلية الآداب – جامعة الإسكندرية، ٢٠٠٨م.

٤- في حضارة أوروبا في العصور الوسطى، الإسكندرية (دار المعرفة الجامعية)، ٢٠٢١م.

٥- يهود فلسطين في العصر المملوكي في ضوء مؤلفات الرحالة اليهود والمسيحيين الأوروبيين، بحث منشور ضمن أبحاث المؤتمر الدولي بعنوان "فلسطين في ضوء البردي والنقوش"، مركز الدراسات البردية والنقوش، جامعة عين شمس، القاهرة، ٢٠٠٠م. وأعيد نشره في بحوث كتاب بعنوان: إبراهيم سعيد فهيم محمود (دكتور): دراسات في تاريخ العصور الوسطى حضارتها، الإسكندرية (دار المعرفة الجامعية)، ٢٠٠٦م.

حسين مؤنس (دكتور):

سفارة بدرو مارتير دانجلاريا سفيرالملكين الكاثوليكيين إلى السلطان الغوري (ديسمبر ١٥٠١م . فبراير ١٥٠٢م)، بحث منشور ضمن أبحاث الندوة الدولية لتاريخ القاهرة، مارس . أبريل ١٩٦٩م، جزء ١، القاهرة (مطبعة دار الكتب)، ١٩٧٠م.

عمر جمال محمد على (دكتور):

حادثة قتل رئيس رهبان دير سانت كاترين في أواخر العصر المملوكي (سنة ٨٩٩هـ / ١٤٩٤م) دراسة في ضوء الوثائق المحفوظة في مكتبة الدير، ج ٢، العدد (٣٥)، مجلة وقائع تاريخية، كلية الآداب – جامعة القاهرة، القاهرة، يوليو ٢٠٢١م.

فايز نجيب إسكندر (دكتور):

زمن المماليك الجراكسة في عيني الرحالة الفرنسي جان ثينو (مارس سنة ١٥١٢م/ المحرم سنة ٩١٨هـ، دراسة تحليلية نقدية مقارنة بمصادر الرحالة الأوروبيين المعاصرين، بحث منشور ضمن أبحاث المؤتمر الدولي الثالث لكلية الآداب والعلوم الإنسانية بجامعة قناة السويس بعنوان (العلاقات المصرية الفرنسية عبر العصور)، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة قناة السويس، الإسماعيلية، ٢٠١١م.

محمد أبو الفرج العش:

مصر . القاهرة، على النقود العربية، بحث ضمن أبحاث الندوة الدولية لتاريخ القاهرة، مارس . أبريل، ١٩٦٩، ثلاثة أجزاء، القاهرة (مطبعة دار الكتب)، ١٩٧٠ . ١٩٧١م.

محمود سعيد عمران (دكتور):

حضارة أوروبا في العصور الوسطى، الإسكندرية (دار المعرفة الجامعية)، ٢٠١٦م.

منال محمد السيد (دكتور):

١- العروض العسكرية أواخر دولة المماليك الجراكسة في ضوء رحلة الألماني مارتين بوم جارتين، بحث منشور في مجلة وقائع تاريخية، العدد ٢٦، القاهرة (مركز البحوث والدراسات التاريخية . كلية الآداب . جامعة القاهرة)، يناير ٢٠١٧م.

٢- بعض مظاهر الحياة في القاهرة في ضوء رحلة الرحالة الألماني مارتين بوم جارتين أواخر عصر سلاطين المماليك، بحث منشور في مجلة المؤرخ المصري، العدد ٥٤، القاهرة (قسم التاريخ . كلية الآداب . جامعة القاهرة)، يناير ٢٠١٩م.